

هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ

(٣)

● احترام المقدّسات

● خيرية الأمة

«شروط مكتسبة... لا عنصرية موروثة»

● عوامل تفوق الإسلام

«شهادة عربية»

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية



هذا هو الإسلام

(٣)

* احترام المقدسات

* خيرية الأمة

«شروط مكتسبة.. لا عنصرية موروثية»

* عوامل تفوق الإسلام

«شهادة عربية»

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ديسمبر ٢٠٠٥ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٢٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo. com >

هذا هو الإسلام

(٣)

* احترام المقدَّسات

* خيرية الأمة

«شروط مكتسبة.. لا عنصرية موروثية»

* عوامل تفوق الإسلام

«شهادة غربية»

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الفهرس

الصفحة

الموضوع

* احترام المقدسات *

٩	١ - فى صدر الإسلام
١٥	٢ - وفى التاريخ : موقفان
٢١	٣ - وفى العصر الحديث
٢٥	٤ - وفى معاملة الأسرى .. واحترام العهود
٣٦	الهوامش
٣٨	المصادر والمراجع

* خيرية الأمة *

شروط مكتسبة .. لا عنصرية موروثية

٤١	١ - تمهيد
٤٣	٢ - خيرية مشروطة
٤٧	٣ - التعريف بالمصطلحات
٤٩	٤ - رؤية حضارية لخيرية الأمة
٥٧	٥ - عنصرية نزعَة شعب الله المختار
٦٧	٦ - العصمة الدولية لشعب الله المختار!

٧١	الهوامش
٧٣	المصادر والمراجع

* عوامل تفوق الإسلام *

٧٧	شهادة العلامة مونتجمري وات
٧٩	١ - الأهداف
٨١	٢ - الوحي القرآنى
	٣ - ثراء القرآن . . وجدته . . وأصالته . . وحفظه . .
٨٥	ومحوريته فى الثقافة الإسلامية
٨٩	٤ - العربية : لغة حضارة وثقافة متميزة
٩١	٥ - عالمية الإسلام . . وتفوقه . . ورقية
٩٣	٦ - فشل المسيحية فى الشرق الأوسط
٩٧	٧ - الإسلام هو الهيكل الأساسى لدين المستقبل
٩٩	٨ - تعصب المركزية الأوروبية
١٠١	٩ - العلم . . والعلمانية . . والقيم
١٠٣	١٠ - شروط الحوار بين أهل الأديان
١٠٥	الهوامش
	* الدكتور محمد عمارة
١٠٧	١ - سيرة ذاتية فى نقاط
١١٠	٢ - ثبت بأعماله الفكرية

احترام المقدسات

فى صدر الإسلام

فى أول لقاء بين الإسلام والنصرانية، عندما استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، بالمدينة المنورة سنة ١٠هـ ٦٣١م، كان احترام الإسلام لمقدسات الآخرين الدينية معلماً من المعالم البارزة التى أرساها الإسلام، فى النظر وفى التعامل مع هؤلاء الآخرين.

ولم يكن ذلك مجرد سماحة من رسول الإسلام ﷺ ولا محض سياسة فى التعامل مع هؤلاء الآخرين، غير المسلمين... وإنما كان - فوق ذلك وقبله - انطلاقاً من الإيمان الدينى الإسلامى، الذى لا يكتمل إلا بالاعتراف بكل الشرائع والكتب التى يتعبد بها هؤلاء الآخرون.

فالمسلمون يتلون فى قرآنهم الكريم قول الله - سبحانه وتعالى - وصفاً لهم: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] - وكتابهم - القرآن الكريم - قد جاء مصدقاً لما بين يديه من وحى الله - سبحانه وتعالى - إلى جميع الرسل والأنبياء: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧] - فهذا الوحي القرآنى هو الفصل الخاتم والجامع والمفصل فى سلسلة الوحي الإلهى على مر تاريخ الرسالات والنبوات: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

وفى هذا الوحي القرآنى يصلى المسلمون ويسلمون على كل الأنبياء والمرسلين .
ويعظمون الهدى والنور الذى أنزل الله على موسى - فى التوراة - وعلى عيسى - فى الإنجيل - ويؤكدون على الانتماء إلى ملة أبى الأنبياء، الخليل إبراهيم عليه السلام .

لهذا الإيمان الدينى الإسلامى - الذى أسس للسماحة الإسلامية - كان احترام الإسلام والمسلمين لكل مقدسات أصحاب المقدسات الدينية، منذ اللحظة الأولى للقاء الإسلام بأهل الكتاب - من اليهود والنصارى - وطوال تاريخ الإسلام .

بل إن هذه القاعدة الإسلامية قد طبقها المسلمون مع أهل الديانات الوضعية - ومع مقدساتهم - انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ : «سُئِلُوا فِيهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» - رواه الإمام مالك فى الموطأ . فاحترم المسلمون الخصوصيات الدينية، ودور العبادة لأهل تلك الديانات، وعاش فى عالم الإسلام وحضارته المجوس والبوذيين والصابئة والهندوس، وكل ألوان الطيف الدينى - مع أهل الديانات السماوية - يتعبدون فى معابدهم، التى احترمها وصانها وقدها الإسلام والمسلمون .

ولأن رسول الله ﷺ قد جمع إلى النبوة والرسالة قيادة الدولة الإسلامية الأولى، فلقد قنن هذا المعلم من معالم الدين والدولة فى الإسلام، منذ اللحظة الأولى للقاء الإسلام والنصرانية، عندما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة، فى عام الوفود سنة ١٠هـ - ٦٣١م .

لقد فتح رسول الله ﷺ مسجد النبوة لنصارى نجران فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، الذى حان موعده وهم ضيوف على الرسول ﷺ^(١) .

كما تم التفتين - تفصيلياً - لاحترام جميع المقدسات غير الإسلامية فى الوثيقة الدستورية - «العهد» - الذى كتبه رسول الله ﷺ لنصارى نجران، ولكل المتدينين بالنصرانية . وهو «العهد» الذى جاء فيه :

«ونجران ولحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من يتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريتها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . وأن أحرس دينهم وملتهم أين

كانوا . . بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى . . لأننى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وعلى المسلمين ما عليهم . . حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم» .

لقد أعطى الدين الإسلامى كل غير المسلمين جميع حقوق المواطنة ، مثلهم فى ذلك مثل المواطنين المسلمين . مشترطاً عليهم ما هو مشروط على المسلمين : أن يكون الولاء الكامل والانتماء الخالص لدولة الإسلام - التى هى دولة الجميع - وينص هذا «العهد» - عهد الرسول ﷺ لنصارى نجران :

«واشترط عليهم أموراً يجب عليهم فى دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه منها : ألا يكون أحد منهم عيناً ولا رقيباً : لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلايته ، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين ، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة ، ولا يتزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شئ من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة ، ولا يرفدوا أحداً من أهل الحرب على المسلمين بتقوية لهم سلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم ، ولا يصانعوهم . . ولا يظهروا العدو على عورات المسلمين ، ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم»^(٢) .

فكل حقوق المواطنة مكفولة لغير المسلمين - كالمسلمين - وكل واجباتها كذلك ، مفروضة على غير المسلمين - كالمسلمين - أن يكون الجميع لبنات فى جدار الأمن الوطنى والحضارى ، لا ثغرات اختراق!

ولقد بلغ احترام الإسلام وتقديسه للخصوصيات الدينية لغير المسلمين الحد الذى تجاوز «السماح» بإقامة هذه الخصوصيات فى الدولة الإسلامية ، إلى «الأمر» بإقامة هذه الخصوصيات . . . فى القرآن الكريم : ﴿ وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة : ٤٧] . . . ﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٣] .

وانطلاقاً من هذا القرآن الكريم ، خاطب الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ ق هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠ م] «المقوقس» - عظيم القبط بمصر - عندما حمل إليه رسالة

رسول الله ﷺ سنة ٧ هـ - ٦٢٨ م، فقال له: «... ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به» (٣).



ولم تقف هذه السماحة، وهذا التقديس لخصوصيات الآخرين الدينية - عقائدية . . . وكنائس . . . ومؤسسات دينية - عند دولة النبوة . . . بل كانت سمة عامة ومرعية طوال تاريخ الإسلام . . . لأن الدولة الإسلامية، التي تحرس الدين، هي الدولة التي يسوسها الدين، ويعلمها القرآن الكريم أن التدافع والدفع ليس فقط لحماية المقدسات الإسلامية، وإنما لحماية دور العبادة الخاصة بكل أصحاب الشرائع الدينية: «ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» [الحج: ٤٠].

فعندما فتح المسلمون القدس سنة ١٥ هـ - ٦٣٥ م أعطى الراشد الثاني الفاروق عمر ابن الخطاب (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م) أهل القدس - من النصارى - «العهد العمرى» - الذي ضمن لهم:

«الأمان لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُستقص من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم» (٤).

بل لقد بلغ احترام عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يومئذ - لكنيسة القيامة، الحد الذي جعله يعتذر لبطرك القدس «صغرينيوس» [١٧ هـ - ٦٣٨ م] عن عدم الصلاة - صلاة عمر - في الكنيسة احتراماً لخصوصيتها واختصاص أهلها بها، وكى لا يأتي حاكم مسلم - في قادم الزمان - فيتأول صلاة عمر في الكنيسة، بأن للمسلمين حقاً في جزء منها!!

وعندما فتح المسلمون مصر - بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص [٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤ م] - لم يقف الفتح الإسلامي - فقط - عند تحرير الأرض من الاستعمار الروماني - الذي امتد عشرة قرون - وتحرير الضمير الديني من القهر الروماني البيزنطي . . . وإنما امتد هذا التحرير إلى حيث حرر المسلمون أيضاً كنائس النصرانية - المصرية - الأرثوذكسية، التي كانت مغتصبة من قبل الرومان - ومذهبهم الملكاني - حرر

المسلمون هذه الكنائس ، لا يجعلونها مساجد إسلامية ، وإنما ليعيدوها إلى أقباط مصر يمارسون فيها عباداتهم النصرانية . . الأمر الذي جعل فقهاء الإسلام يقولون إن جميع كنائس مصر قد حُذِّت وبنيت بعد الفتح الإسلامي !

ويومئذ ، أعاد المسلمون البطريرك القبطي « بنيامين » [٣٩ هـ - ٦٥٩ م] بعد أن ظل هارباً من الرومان ثلاثة عشر عاماً . . فتسلم كنائسه وأديرته - التي حررها الإسلام - وأخذ يزورها في مواكب الفرح الشعبي والسرور الوطني . . وبعبارة الأسقف القبطي « يوحنا التقيوسي » - المعاصر لهذا الفتح والتحرير . . والذي وصف عودة البطريرك « بنيامين » إلى كنائسه التي حررها الإسلام - فقال :

« . . ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية ، وسار إلى كنائسه ، وزارها كلها ، وكان كل الناس يقولون : هذا النفي ، وانتصار الإسلام ، كان بسبب ظلم هرقل الملك [٦١٠ - ٦٤١ م] وبسبب اضطهاد الرومان للأرثوذكسيين . . وهلك الروم لهذا السبب ، وساد المسلمون مصر . . ولم يأخذ عمرو بن العاص شيئاً من مال الكنائس . . وحافظ عليها طوال الأيام » .

وفي مهرجان الفرح هذا - بتحرير الإسلام لكنائس مصر ، وإعادتها لأصحابها - أعلن البطريرك بنيامين : أن الإسلام قد حقق أحلامه . . حقاً :

« لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما ، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون » ^(٥) .

ومع تحرير الإسلام لكنائس مصر ، وردها إلى أهلها . . حرر الإسلام - كذلك - أديرة الرهبان المصريين ، الذين كانوا هاربين - قبل الفتح الإسلامي - من اضطهاد الرومان في المغارات والصحاري وشعاب الجبال . . فرحف هؤلاء الرهبان لبقاء عمرو ابن العاص ، شاكرين له تحقيق أحلامهم . . حتى « ليروي أنه خرج للقاءه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب ، بيد كل واحد عكاز ، فسلموا عليه . وأنه كتب لهم كتاباً - [بالأمان] - هو عندهم » ^(٦) .



وفى التاريخ : موقضان

ولم تقف هذه السماحة الإسلامية، التى تقدس مقدسات الآخرين، عند عهد النصحية والخلافة الراشدة وصدر الإسلام. . وإنما ظلت عقيدة إسلامية يضعها المسلمون فى الممارسة والتطبيق. . حتى لقد شهد رجل الدين القبطى «ميخائيل السريانى» - بعد قرون من الفتح الإسلامى - على استمرار هذه السماحة الإسلامية، فقال:

«لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب غمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»^(٧).

كما شهد على استمرار هذه السماحة أول مؤرخ قبطى لتاريخ البطارقة - «ساويروس بن المقفع» - فى القرن العاشر الميلادى - فقال:

«وبدأت عمارة ديارات وادى هيبب والمنى، وكانت أعمال الأرثوذكسين تنمو، وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطهم وأطلقوا على ألبان أسماهم»^(٨).

وهكذا عاشت وتعايشت - فى ظل الدولة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى - بل وازدهرت كل ألوان الطيف الدينى. . وكل المقدسات الدينية لكل أصحاب الديانات. . حتى لقد أفتى فقيه مصر الليث بن سعد [٩٤ - ١٧٥ هـ / ٧١٣ - ٧٩١ م] «بأن بناء الكنائس يعد من عمارة البلاد»^(٩).

ولقد كانت القدس التى احتكرها الرومان لأنفسهم، فى عهد وثنتهم، وفى عهد نصرانيتهم كانت طوال التاريخ الإسلامى العنوان المجدد لسماحة الإسلام مع سائر

المقدسات . . فتعايشت فيها وعاشت كل المقدسات - النصرانية . . واليهودية - حتى
 لشهد «حجج» أوقاف كنائسها، التي كتبها أهلها على ذلك ، عندما جعلوا نظار
 أوقاف هذه الكنائس عائلات مسلمة، ترعى هذه الأوقاف الكنسية . . بل ونصّ الكثير
 من «حجج» أوقاف هذه الكنائس المقدسية على أن تكون أسر مسلمة هي الحاملة
 «لغنائج» هذه الكنائس ، تبسّر فتح أبوابها أمام الطوائف النصرانية - المتخالفة في
 الطقوس والاعتقادات - ليؤدى الجميع فيها القداديس والصلوات !



وإذا كان هذا هو موقف الإسلام - العقدي . . والفقهى . . العملى - من مقدسات
 الآخرين . . فماذا كان موقف الغرب - الكنسى . . والسياسى - من مقدسات الإسلام ،
 ومساجد المسلمين ، إبان فترات الاحتكاك بين الغرب وعالم الإسلام ؟ . .

إن القدس ، التي جعلها الإسلام حرماً آمناً لكل أصحاب الديانات ، ولجميع
 المقدسات ، عندما احتلها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م ، قد أبادوا كل من وجدوه
 فيها من المسلمين - ومن اليهود أيضاً - أبادوا سبعين ألفاً ، فى مجزرة وحشية ورهيبة
 استمرت سبعة أيام ! . . وهى مجزرة شارك فيها - مع فرسان الإقطاع الأوروبيين -
 بطاركة الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها . . حتى لتصف المستشرقة الألمانية الدكتور
 «سيجرىد هونكة» تلك الإبادة ، التي اعتبرها هؤلاء القساوسة أعظم ما يتقربون به إلى
 الله ! ! . فتقول :

«لقد كان البطريرك نفسه يعدو فى أزقة بيت المقدس ، وسيفه يقطر دماً ، حاصداً به
 كل من وجدته فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح ، فأخذ فى
 غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها ، مردداً كلمات المزمور : «يفرح الأبرار حين
 يرون عقاب الأشرار ، ويفسلون أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس : حقاً إن للصديق
 مكافأة ، وإن فى الأرض إلهاً يقضى» - المزمور ٥٨ : ١٠ - ١١ .

ثم أخذ - [البطريك] - فى أداء القداس ، قائلاً : «إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى
 قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب» ! ! (١٧)

وإذا كانوا لم يرحموا البشر ، الذين استمر ذبحهم لهم «حتى كُلت أيديهم من الذبح
 والقتل ! !» . . فإنهم لم يحترموا المقدسات . .

فمسجد عمر بن الخطاب - عمر ، الذي سبق أن أعطى الأمان لمقدساتهم ، واحترم خصوصياتها . قد احتوى بمسجده - مسجد قبة الصخرة - جمهور من المسلمين الهاربين من القتل والذبح والحرق . . فاقترحمه الصليبيون ، وذبحوا جميع من فيه ، حتى لقد تحول المسجد إلى بحيرة متموجة من الدماء ؛ سبحت فيها خيول الصليبيين إلى لحم الخيل !! . . وبعبارة المؤرخ النصراني - رجل الدين - «مكسيموس مونروند» - في كتابه [تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، المدعوة حرب الصليب] - التي يصف فيها ما حدث للقدس الشريف على أيدي الصليبيين :

«إن ديوان المشورة العسكرية - [الصليبي] التيم - [اجتمع] - وقطع حكماً مرهباً ، وهو : أن يمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة . وهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل . . ودامت هذه الملحمة مدة سبت - [أي سبعة أيام] - كاملة .

والمؤرخون يتفقون على أن الإسلام - [أي المسلمين] - الذين ذُبحوا داخل أورشليم بلغوا سبعين ألفاً . ثم إن اليهود قد كانوا داخلين في عدد المحكوم ؛ لأن ألفاظ الحكم كانت بالموت ضد غير المؤمنين ، بدون تمييز المسلم من اليهودي .

على أنه باطلاً - [أي عبثاً] - كان الإسلام - [أي المسلمون] - في أورشليم ، في اليوم المذكور ، يجذون مفتشين عن مهرب يحملون به حياتهم ؛ لأن هذه المدينة خلت من ملجأ لهم . فعدد كلى منهم قد هربوا إلى جامع عمر ، ظانين أنهم هناك يحملون ذواتهم من الموت ، ولكن ظنهم خاب ، إذ إن الصليبيين - خيالة ومشاة مختلطين - قد دخلوا الجامع المذكور ، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك . . وحسب تقرير «رايموند ده أجلاس» : فقد طاف الجامع من الدماء حتى أنه تحت القناطر التي عند بابه احتقن الدم وعلا إلى حد الركب ، بل إلى لحم الخيل . . وقال «روبارتوس» الراهب : إن جامع عمر قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموج ، وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب - [أرقاب] الإسلام - [المسلمين] .

كانت المذابح رهيبة ، جرت دماء المغلوبين في شوارع المدينة حتى ارتفع مستوى الدم ووصل إلى ركب من سار فيها .

ولما حل المساء ، اندفع الصليبيون ليكون من فرط الضحك !! - بعد أن أتوا على نبذ المعاصر - إلى كنيسة القيامة ، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها ، ورددوا الصلوات !!

لقد استحال منظر أورشليم، بغثة، إلى مشهد جديد؛ لأنها فى أيام قليلة، انقلبت من ديانته إلى أخرى، ومن شرايع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوايد إلى أخرى، ومن سكان إلى غيرهم، فالغالبون أضحووا أغنيا بالغنائم التى امتلكوها بين أيديهم. . . فالقايد «تكريد» قد امتلك جميع الغنى الذى وجد فى جامع عمر، وهذه كانت عظمة المقدار والقيمة، حتى أنه لم تكفها ست عربات كبيرة لنقلها، وأنه قد استمر مدة يومين فى إخراجها من ذلك الجامع»!! (١١).

تلك شهادة شهود العيان من النصارى. . . نقله مؤرخون نصارى. . . وحرصنا على تقديمها حتى بالأسلوب الركيك الذى صاغوها به. . . وهى شهادة لا تحتاج إلى تعليق. . . بل هى أبلغ من أى تعليق على هذا الذى صنعه الغرب الاستعمارى بمقدسات الإسلام. . . وبالمسلمين. . . فى المدينة التى جعلها المسلمون حرماً آمناً لكل المقدسات. . . التى أطلقوا عليها اسم «القدس» و«بيت المقدس» و«الحرم القدسى الشريف»، تجسيدا للمقدسة التى ضارت عنواناً عليها فى حضارة الإسلام.

ولم يكتف الصليبيون بهذا الذى صنعوا. . . وإنما قاموا باحتكار القدس لهم، دون كل أصحاب الديانات والمقدسات. . . فحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاثنية. . . وجعلوا جزءاً منه اصطبلًا للخيل!!



بل إن الاستهانة والإهانة والتدنيس والتدمير، التى ألحقها الصليبيون بالمقدسات، لم تقف عند المقدسات الإسلامية. . . واليهودية. . . بمدينة القدس. . . وإنما عمت مقدسات الكنيسة الشرقية. . . فى القسطنطينية. . .!! . . . فعندما احتلوها. . . وهم فى طريقهم إلى الشرق. . . سنة ١٢٠٣ م: «أخذوا يعيشون بها فساداً كأنهم جراد منتشر ملتهم. . . فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح، وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهد روما نفسها على أيدي الوندال أو القوط. . . ووزع الأشراف اللاتين قصور المدينة فيما بينهم، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز، واقتحم الجنود البيوت، والكنائس والخوانيت، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها، ولم يكتفوا بتجريد الكنائس، مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر، بل جردوها.

فوق ذلك - من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ بأوروبا الغربية بأثمان عالية .

وعانت كنيسة أيا صوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك سنة ١٤٥٣ م ، فقد قُطِعَ مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه . . وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقمشة ، والجواهر ، ونقلت الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تطل على المدينة اليونانية - وجُمِلَ بها ميدان القديس مرقس ، بروما . . وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التي امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس عن سائر الكنائس .

وبُذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور ولا الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ، فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين !

وبُدِّدَت في أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب ، وأُتلفت المخطوطات الثمينة ، أو فُقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين في المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل .

واستُبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، ورُسِّم كثير منهم قساوسة دون أن يكون لهم تاريخ سابق في شئون الدين !

وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم التي نهبوها!!^(١٢)

هكذا صنع الصليبيون بما حصة الكنيسة الشرقية وكنائسها وكنوزها وأهل الدين والدنيا فيها - على حد وصف مؤرخ الحضارة "ول ديورانت" - لمجرد الاختلاف في المذهب . . وليس في الدين!!



وفى العصر الحديث

ولم تقف هذه الجرائم الوحشية التى ارتكبها الغرب الاستعمارى فى حق المقدسات الدينية عند عصوره الوسطى والمظلمة . بل لازمت غزوات هذا الغرب الاستعمارى حتى فى عصره الحديث - عصر النهضة - والاستشارة والتنوير :

فناپوليون بوناپرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] إبان غزوته لمصر [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م] افتتحت جيوشه الجامع الأزهر الشريف . . وهو واحد من أعرق المساجد والجامعات فى العالم الإسلامى والذى أطلق عليه المسلمون - عبر تاريخهم - وصف «الشريف» . . مع الحرم المكى الشريف . . والحرم المذنى الشريف . . والحرم القدسى الشريف . فعاثت جيوش الغزوة الفرنسية فى حرم هذا الأزهر فساداً ، حتى لقد ارتكبوا فيه جرائم القتل والنهب والسرقه وتمزيق المصاحف الشريفة وكتب الحديث النبوى الشريف . . بل لقد بالوا وتغرطوا وسكروا فيه !

ولقد تحدث مؤرخ ذلك العصر عبد الرحمن الجبرتنى [١١٦٧ . ١٢٣٧ هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م] عن هذه الجريمة - فقال :

«لقد دخل أولئك الوعول [التيوس!] - إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول . . وداس فيه المشاة بالنعالات وهم يحملون السلاح والبندقيات ، وتفرقوا فى صحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فى الأروقة والحجرات ، وكسروا القناديل السهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا

بالمسجد وتمخطوا، وبالوا وتغوطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانية، وألقوها بصحنه ونواحيه.

وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه، ووجدوا في بعض الأروقة إنساناً فذبحوه، ومن الحياة أعدموه، وفعلوا بالجامع الأزهر، ما ليس عليهم بمستنكر؛ لأنهم أعداء الدين، وأخصام متغلبون، وغرماء متشمتون، وضباع متكالبون، وأجناس متباينون، وأشكال متعاندون. وأعطى تلك الليلة جيش الرحمن، فسحة لجيش الشيطان!!^(١٣).

هكذا صنع جيش الحملة الفرنسية - الذي كان يرفع أعلام الثورة الفرنسية . . وشعارات الحرية والإخاء والمساواة - بيت من بيوت الله . . وجامعة هي أعرق جامعات الإسلام . .

وصدق الخبرني عندما وصفه بأنه «جيش الشيطان» الذي حل محل «جيش الرحمن»!!

وإذا كانت ثورات الشعب المصري ضد هذه البربرية - التي أبادت سبع تعداد الشعب المصري يومئذ! - قد جعلت بونايرت - الذي دوخ أوروبا - يهرب من مصر بليل . . فلم يتجاوز عمر احتلال جيشه لمصر العامين إلا قليلاً . . فإن الاستعمار الفرنسي للجزائر - والذي دام قرناً وثلاث القرن - من سنة ١٨٣٠م حتى سنة ١٩٦٢م - قد حول الكثير من مساجدها إلى كنائس . . وعلب ليل . . وخمارات!! .

ولقد ظل هذا العار الأوروبي قائماً طوال تلك العقود . . حتى استطاع الشعب الجزائري أن يحرر أرضه الطاهرة، ويعيد مساجده إلى رحاب الله، بعد أن غسلها الشعب بالماء والعطور والمظهرات والدموع! . . فارتفع الأذان من مآذنها مرة ثانية . . بعد أن خاب إعلان المكرادلة الفرنسيين الكاثوليك - سنة ١٩٣٠م: «لقد رُلِّي - في الجزائر - عهد الهلال . . وأقبل عهد الصليب»!!



وتتكرر جريمة الغرب الاستعماري مع الأزهر الشريف - مرة أخرى - على أيدي المستعمرين الإنجليز « إيان ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩م . . فيحاولون إغلاقه في

٢ إبريل سنة ١٩١٩ م. . ولكن شيخه الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي [١٢٦٣ - ١٣٤٦ هـ / ١٨٤٧ - ١٩٢٧ م] يرفض ذلك^(١٤) . لكنهم يعودون فيقتحمونه ويدّسونه في ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ م.

ويتحدث مؤرخ الوطنية المصرية عبد الرحمن الرافعي [١٣٠٦ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٦ م] عن هذه الجريمة في حق المقدسات الإسلامية، فيقول:

«لقد وقع في يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ م - ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ - حادث اهتزت له أرجاء القاهرة، وأثار عاصفة من السخط والاستنكار في أنحاء البلاد، وهو اقتحام الجنود الإنجليزية الجامع الأزهر . لقد دخلوه بنعالهم وأسلحتهم - مطاردين للمتظاهرين - واعتدوا على من صادفهم بالضرب والإيذاء، فحدث هرج ومرج في الجامع، واقتحم الجنود مكاتب الإدارة، وحاولوا كسر الأبواب، ففزع الموظفون، وحدثت ضجة كبيرة داخل الجامع وخارجه» .

ولقد احتج على هذه الفعلة الشنيعة - فعلة «اقتحام الجنود الإنجليز بنعالهم وعصيهم هذا المعهد الإسلامي المقدس والجامعة الإسلامية الكبرى، التي يؤمها طلاب العلوم من جميع الأقطار» - احتجاجوا على هذه البربرية التي تنتهك حرمات المقدسات» .

ورُفِعَ علي هذا الاحتجاج أكثر من مائة من كبار علماء الأزهر الشريف . . .^(١٥)



ولا تنتهي فصول هذه الإهانات والاستهانات بمقدسات الإسلام والمسلمين، من قبل المستعمرين الغربيين . . ففي أحدث، فصورها، وإبان الهجمة البربرية الأمريكية على مدينة «الفالوجة» العراقية - في أكتوبر - نوفمبر سنة ٢٠٠٤ م - وهي مدينة صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثمائة ألف نسمة، ولا تزيد مساحتها على أربعة كيلومترات في الطول والعرض - آى أنها قرية كبيرة . . إبان الهجوم على «الفالوجة» دمر الجيش الأمريكي أغلب مساجدها، مرتكباً فيها جرائم الحرب والعداء للإنسانية - من مثل قتل الأسرى . . والإجهاز على الجرحى . . وقتل العزل من النساء والشيوخ والأطفال، الذين احتموا بهذه المساجد من دمار الأسلحة الفتاكة والمحرومة دولياً!!

ومن هذه المساجد التي تم تدميرها - كلياً أو جزئياً - والتي حول الأمريكان بعضها إلى تكتلات عسكرية يعيث فيها الجنود فساداً!! - والتي سبوا بعضها بالشراب : «جامع أبو أيوب - وجامع الشيخ زامل - ومسجد انفرادوس - ومسجد البراءة والهداية - ومسجد الحاج نزال - وجامع الخلقاء - وجامع المدلل - ومسجد الحسن والحسين - وجامع معاوية - وجامع حسين شلش - ومسجد أبو عبيدة - ومسجد الراوى - ومسجد الضاحي» (١٦).

لقد دمروا أغلب مساجد الفالوجة - أربعين مسجداً من سبعين! - وذلك في أحدث فصول الإهانات والانتهاكات الغربية لمقدسات الإسلام والمسلمين .

ومن قبل مساجد الفالوجة . . كان الاقتحام والتدنيس لمقره الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بمدينة النجف . . والعدوان على مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان [٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧ م] - ببغداد - وغيرها من المقدسات الكبرى والشهيرة والتاريخية في العراق .

فهل يكون هذا الفصل - فصل الخزي والعار الأمريكي بالعراق - هو خاتمة هذه الفصول ، التي توالى على مر تاريخ الاستعمار الغربي للشرق الإسلامي؟!

يبدو أن فصل الخزي والعار - الأمريكي والغربي في الفالوجة - إزاء المقدسات الإسلامية ، ليس آخر هذه الفصول . . فلقد نشرت النيوزويك الأمريكية - في ٩ مايو سنة ٢٠٢٥ م - أنباء وضع المحققين الأمريكيين - في معتقل «جوانتانامو» - نسخ المصحف الشريف في المراحيض!! . . كجزء من التعذيب للمعتقلين المسلمين هناك!! . . «فتفوقوا» على فعلة جنود بونايرت في الأزهر الشريف!!

ومع ذلك ظل الضمير الغربي صامتاً - إنه لم نقل ميتاً - إزاء الانتهاكات لحرمة المقدسات ، ما دامت أن هذه المقدسات خاصة بالإسلام والمسلمين؟!



أما فصول الدنس الذي أحقته - وتلحقه - الصهيونية بالمقدسات الإسلامية على أرض فلسطين . . فإنها بحاجة ، إلى حديث خاص ، يجلى هذه الصفحة من صفحات الخزي والعار التي تتسابق فيها الصهيونية اليهودية مع الصليبية الغربية في هذا المضمار؟!

وفى معاملة الأسرى.. واحترام العهود

على الرغم مما قننته «اتفاقات جنيف» سنة ١٩٤٩م من قواعد تحكم معاملة أسرى الحروب.. والمدنيين الذين يتحولون إلى ما يشبه الأسرى، فى ظل الاحتلال العسكرى لبلادهم.. إلا أن هذه القضية قد أثّرت بحدة فى السنوات الأخيرة، وذلك بسبب المعاملات غير الإنسانية واللاأخلاقية والوحشية التى شاعت فى معاملة الأسرى على ساحات كثيرة من ساحات الصراعات المعاصرة.

فالشعب الفلسطينى، قد أصبح أسيراً لألة الحرب الصهيونية، وللممارسات العنصرية اليهودية، محروماً من أدنى حقوق الأسرى!.. فحتى جرحى هذا الشعب المجاهد يتركون لتترف دماؤهم فيموتون صبراً.. وتنتع سيارات الإسعاف من إنقاذ حياتهم.. بل وتضرب سيارات الإسعاف بالصواريخ الصهيونية، على نحو لا سابقة له حتى فى حروب النازيين والفاشيين.. وربما التتار أيضاً!.. ويتم ذلك، فى حماية الهيمنة الغربية والأمريكية، التى صاغت دولها اتفاقات جنيف سنة ١٩٤٩م!!

أما أسرى السجون الصهيونية.. من آلاف الفلسطينيين.. فلقد تجاوز الأمر معهم حد الحرمان من الحقوق، ووصل إلى التعذيب «الفنى - المنظم».. الذى قننته «العدالة الصهيونية»!

وأسرى الشعب الأفغانى، الذين سقطوا بيد الأمريكان وحلفائهم سنة ٢٠٠٢م.. قد صبَّ عليهم الزيت فى «قلعة جانج».. بشمال أفغانستان.. وحرقوا حرقاً!!.. ومن أفلتوا من الحرق شحنوا فى «حاويات» شحن البضائع، فماتوا خنقاً!!

ومنذ ذلك التاريخ، والعالم يشهد - بالصور الملونة - قصص التعذيب «المنظم» والعلمى! «لأسرى الذين وقعوا بيد الأمريكان، من «جوانتانامو» إلى «كابول»!

ثم جاء المشهد العراقي الدامي ، الذي أقامه العدوان الأمريكي للأسرى العراقيين - نساء ورجالاً ، شبهاً وشباناً . . علماء وعامة - منذ عدوان سنة ٢٠٠٣ م على العراق . . وهو المشهد الدامي في إذلاله ، والمذل في دمويته ولا إنسانيته . . والذي افتضحت قطرات من محيطه في سجن واحد من سجون ، وهو سجن «أبو غريب» ، بالقرب من بغداد . . حيث شهد العالم - بالصورة الملونة - الاستباحة الأمريكية لكل المقومات التي مثلت جماع إنسانية الإنسان وفي مقدمتها مقومات احترام النفس . . والعرض . . والدين ! - التي هي كل ما بقي للأسير والسجين !!

ثم جاءت حوادث فردية أسرت فيها جماعات عراقية مجهولة أفراداً يعملون في خدمة المجهود الحربى لقوات الاحتلال الأمريكى فى العراق . . حيث قتلت هذه الجماعات أفراداً من هؤلاء «الأسرى» أو المخطوفين ، عندما لم تستجب دولهم أو الشركات التى يعملون بها لمطلب مقاطعة جيوش الاحتلال . . الأمر الذى أثار الكثير من التساؤلات الملحة حول الموقف الإسلامى من معاملة الأسرى . . وذلك على النحو الذى يشرح صفحات التاريخ الإسلامى فى معاملة الأسرى ، وكذلك صفحات التاريخ الغربى إزاء هذا الموضوع - معاملة الأسرى - لتكون موضوعاً للدراسات التى تستدعى هذا التاريخ ليحجب عن علامات الاستفهام التى قامت فى واقعنا المراهق حول هذا الموضوع - «القديم - الجديد» .



وبادئ ذي بدء فإن القرآن الكريم قد جعل المعاملة الحسنة للأسرى ، وإيثارهم بالطعام - المحبوب والمطلوب - على النفس ، صفة من صفات المؤمنين الأبرار ، الذين وعدهم الله - سبحانه وتعالى - بجنات النعيم المقيم ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ السَّعْيَاءُ عَلَى حُبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَرَّاهُمْ إِلَى جَنَّاتٍ وَحَرِيرًا * [الإنسان : ٥٠ - ٦٢] .

ولقد جاءت هذه الآيات في سورة «الإنسان»، الذي جاهد غرائز الانتقام من الأسرى - الذين قتلوا إخوانه وذويه - فتسامى فوق غرائز الانتقام هذه، في خطابات القوة والقدرة، وعامل الأسرى الذين تجردوا من كل قوة - بهذا المستوى من مستويات الإنسانية والإيثار.

ولقد ذكر «الماوردي» [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ / ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] أن هذه الآيات قد نزلت في الذين عهد إليهم رسول الله ﷺ برعاية الأسرى الذين أسروا في غزوة بدر (٢ هـ - ٦٢٤ م) - وكانوا من صناديد الشرك - . وفي قراءة أسماء هؤلاء السبعة الذين عهد إليهم الرسول القائد بهذه المهمة دلالة لا يخطئها العقل . . فهم سبعة من العشرة الذين تكونت منهم أولى الهيئات الدستورية في الدولة الإسلامية - هيئة المهاجرين الأولين : أبو بكر الصديق (٥١ ق. هـ - ١٣ هـ / ٥٧٣ - ٦٣٤ م)، وعمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م)، وعلي بن أبي طالب (٢٣ ق. هـ - ٤٠ هـ / ٦٠٠ - ٦٦١ م)، والزبير بن العوام (٢٨ ق. هـ - ٣٦ هـ / ٥٩٦ - ٦٥٦ م)، وعبد الرحمن بن عوف (٤٤ ق. هـ - ٣٢ هـ / ٥٨٠ - ٦٥٢ م)، وسعد بن أبي وقاص (٢٣ ق. هـ - ٥٥ هـ / ٦٠٠ - ٦٧٥ م)، وأبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ / ٥٨٤ - ٦٣٩ م).

تلك هي مكانة هذه الأمانة - الأسرى - وتلك هي مكانة الأمانة على هذه الأمانة، في أول تطبيق إسلامي للبلاغ القرآني - الذي جاءت به سورة الإنسان - في هذا الميدان.

أما المصير الذي حدده القرآن الكريم للأسرى، فلقد عينته آيات سورة «القتال» - محمد، وهو : إما المن بالتحريير والخرية دوغما مقابل ، وإما الفداء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوا فَضُدُّوا الرِّقَابَ وَإِذَا مَنَّا بَعْدَ وَإِذَا فَعَاءَ حَتَّى تَضَعُ النُّحْبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ [محمد : ٤ - ٦].

فهذه المعاملة للأسرى - المن أو الفداء - هي «جهاد أكبر»، يدخل المؤمنون ميدانه بعد أن فرغوا من القتال - «الجهاد الأصغر» - وذلك عندما لا ينتقمون - بالقتل - من الأسرى - الذين قتلوا من قتلوا من المؤمنين في المعركة . . للحفاظ على حياتهم، والمن

عليهم بالحرية دون مقابل أو بالفداء - هو جهاد وابتلاء وامتحان من الله لعزائم المؤمنين ، ولو شاء - سبحانه - لانتصر وانتقم هو من هؤلاء الأسرى - الذين قتلوا المؤمنين - فليس للمتصرين أن ينتقموا من الأسرى ، وفاء وقصاصاً لشهداء المسلمين الذين قتلوا بأيديهم ، فلهؤلاء الشهداء عند الله من النعيم ما يذهب أية نوازع للانتقام من صدور إخوانهم المنتصرين . . لهم الجزاء الأوفى ، والهدى ، وصلاح الببال ، والنعيم المقيم في الجنات ﴿والذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ [محمد: ٤ - ٦] - فلا داعي للانتقام لهم من الأسرى . . وإنما هو المن أو الفداء !

ولقد كانت السنة النبوية الشريفة هي البيان الرسالي والتطبيق الأمين لهذا البلاغ القرآني . . وإذا كان الرسول ﷺ قد قتل واحداً أو اثنين من أسرى بدر - كما تقول روايات التاريخ - فإنهما لم يقتلا بحكم الأسر - ولا ليطبق ذلك على كل الأسرى - وإنما قتل من قتل قصاصاً من جرائم قد ارتكباها ، وكانا مطلوبين للقصاص فيها حتى قبل القتال والأسر . . فلا مجال للغلط الجاهلين والمفتريين بأن رسول الله ﷺ قد قتل أسرى يوم بدر .

أما المقتولون من بني قريظة - عقب غزوة الأحزاب [٥٤هـ - ٦٢٧ م] فلم يقتلوا كأسرى ، وإنما قُتلوا جزاء خيانتهم ، ووفق حكم التحكيم الذي اختاروه هم واختاروا حكامه . . فلم يكونوا أسرى معركة قتالية ، وإنما كانوا آخونة للعهود والمواثيق ساعة الشدة والعسرة يوم غزوة الأحزاب ، عندما انحازوا إلى الأعداء .

هذا هو الموقف الإسلامي من الأسرى . . كما حددته الآيات المحكمة في القرآن الكريم . . وكما وضعه رسول الله ﷺ في الممارسة والتطبيق .

ولقد مضى هذا الموقف الإسلامي سنة متبعة على امتداد تاريخ الإسلام . . فلم يسلك المسلمون سبيل الانتقام من الأسرى ، حتى عندما سلك الغزاة الغربيون سبيل القتل لأسرى المسلمين ، طوال ذلك التاريخ !

فالمسيحيون الذين غزوا القدس [٤٩٢هـ - ١٠٩٩ م] قد ذبحوا وأحرقوا كل من وقع

فى أيديهم من المسلمين ، حتى الشيوخ والنساء والأطفال - ذبحوا سبعين ألفاً - حتى الذين احتسوا بمسجد قبة الصخرة - مسجد عمر بن الخطاب - ذبحوا ، وسبحت خيول الصليبيين فى دمائهم إلى لحم الخيل - كما نقل ذلك عن شهود العيان رجل الدين النصرانى صاحب كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق] !!

ولم يقترب جرم قتل الأسرى والمدنيين غير المحاربين فرسان الإقطاع الصليبيين وحدهم . . بل لقد كان رجال الدين النصارى - نعم رجال الدين ! - فى مقدمة الذين اجتروا هذه الفظائع والسيئات . . ولقد وصف المؤرخ الأوروبى «ميشائيل درسير» صنيع «البطريك نفسه فى هذه المذبحة . . . عندما كان يعدو فى أزقة بيت المقدس ، وسيفه يقطر دماً ، حاصداً به كل من وجده فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح ، فأخذ فى غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها ، مردداً كلمات المزمور :

« يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار ، ويغسلون أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس : حقاً إن للصدِّيق مكافأة وإن فى الأرض إلهاً يقضى » - المزمور ٥٨ : ١٠ - ١١ .
ثم أخذ فى أداء القداس ، قائلاً : « إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب » (١٧) !

هنا يمكن للدراسات التاريخية أن تقدم الحقائق التى تعرض لوتين من «الأبرار» . . أبرار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فيطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً . . ويجاهدون نوازع الثأر وغرائز الانتقام من الأسرى الذين قتلوا إخوانهم . مرجحين ومختارين الطاعة لله ، الذى لو شاء لانتصر وانتقم منهم ، والذى جعل للشهداء نعيماً يداوى التذكير به نوازع الثأر ويذهب بغرائز الانتقام .

وفى المقابل - الغربى - هناك «أبرار» يفرحون عندما يغتسلون بدماء الأسرى . . زاعمين أن هذا هو القضاء الإلهى ، مكافأة للصدِّيقين . . والقربان الأعظم الذى يتقربون به إلى الله !!

فالرب هنا هو رب الجنود ، المتعطش للدماء . . الذى جعل - بزعيمهم - سفك دماء الأسرى أعظم القربات الجالبة لرضاه !

وفي مقابل هذه الصفحة - الغربية - من صفحات التعامل مع الأسرى ، يمكن للدراسات التاريخية أن تعرض صنع صلاح الدين الأيوبي [٥٦٤ - ٥٨٩هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م] مع الأسرى . إبان حروب التحرير للمدن والبقاع التي صنع الصليبيون هذا الذي صنعوه مع أسراها المسلمين . . . وهي صفحة مليئة بالوقائع المفضلة ، والقصص الإنسانية ، والأخلاقيات السامية للغروسية الإسلامية ، التي شهد بها الغربيون قبل المسلمين !

وصفحة أخرى من صفحات تاريخ التعامل مع الأسرى . . سطرتها وقائع الغزوة الصليبية لميناء «دمياط» - بشمالى مصر . . فعندما دخل الصليبيون مدينة دمياط [فى ذى القعدة سنة ٦١٥هـ - يناير ١٢١٩م] - ماذا صنعوا بالأسرى والمستضعفين من المدنيين غير المحاربين ؟

تقول الشهادات الغربية : «إنهم أبادوا جميع من بها ، بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة» !

[وفي مقابل هذا الموقف . . ماذا كان صنع المسلمين ، بقيادة السلطان الأيوبي «الملك الكامل» [٥٧٦ - ٦٣٥هـ / ١١٨٠ - ١٢٣٨م] فى معركة تحرير «دمياط» [٦١٨هـ - ١٢٢١م] . . أى ماذا صنع المسلمون مع الأسرى الصليبيين ، الذين سبق أن أبادوا جميع الأسرى المسلمين . . ؟

مرة أخرى ، تشهد المصادر الغربية على «أن الملك الكامل عندما انتصر على هذه الحملة الصليبية ، أكرم أسراهم ولم يقتص منهم : العين بالعين والسن بالسن ، وإنما أطعمهم فى مسغبة أربعة أيام طوال ، مرسلاً إلى جيشهم المتضور جوعاً كل يوم ثلاثين ألف رغيف ، ومواد غذائية أخرى .

ولقد شهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى - عالم الفلسفة اللاهوتية القسيس «أوليفروس» - من كولونيا . . على نهر الراين ، بألمانيا - فكتب رسالة إلى الملك الكامل ، قال فيها :

«منذ تقادم العهود ، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود ، خاصة مع أسرى العدو اللدود . ولما شاء الله أن تكون أسراك ، لم نعرفك مستبداً طاغية ، ولا سيديداً داهية ، وإنما عرفناك أباً رحيماً ، شملنا بالإحسان والطيبات ، وعوناً منقذاً فى كل النوائب والملمات . ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله ؟

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدنوا أسراهم، وكدنا ثغوث جوعاً، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسندوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا نحن تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»^(١٨).

لقد كتب القسيس والفيلسوف اللاهوتي الألماني «أوليفروس» هذا الذي كتبه، ليس كمجرد شاهد عيان، وإنما عن تجربة شارك بها في قتل المسلمين الأسرى، ثم إذا هو - عندما وقع أسيراً مع جيشه الصليبي يجد المسلمين الذين قُتل أهلهم أسرى - يؤثرونه وزملاءه على أنفسهم - مع الخصاصة - كتب هذا الرجل ذلك، دون أن يدري أن هؤلاء المسلمين إنما كانوا يقيمون الدين الإسلامي، ويجسدون الوحي القرآني الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين - عليه الصلاة والسلام - في معاملة الأسرى - فهو دين . . . وهي سماحة الإسلام . . . وليست مجرد أريحية لحاكم عن الحكام، أو شعب من الشعوب . . . ولعل عبارة هذا «القسيس - الأسير» قد أشارت إلى هذه الحقيقة عندما قال - عن هذه المعاملة الإسلامية للأسرى - «ومن الذي يشك لحظة أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟!».

وإذا كان الغرب، الذي أدهشته السماحة الإسلامية عند صلاح الدين الأيوبي، والملك الكامل، قد حاول بعض كتابه أن يقدموا الملك الإنجليزي انصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٨٩ - ١١٩٩ م] في صورة تشبه صورة صلاح الدين، فإن قضية معاملة الأسرى - بشهادة الغربيين أنفسهم - قد فضحت هذه المحاللات . . . وكما تقول المستشرقة الألمانية «سيجيريد هونكة»:

«ففي حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس [٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م] التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل [٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م] بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحه لا تدانيها مذبحه وحشية وقسوة، فإن صلاح الدين لم يسفك دم سكانها من النصاري انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلق بروح الفروسية العالية».

ثم تضى هذه الشهادة الغربية، لتقارن ذلك بما صنعه الملك «ريتشارد قلب الأسد» من الإبادة لأسرى المسلمين، بعد أن قطع لهم عهد الأمان!! . . فتقول :

«وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى تجاه كلمة الشرف أو الأسرى . . فالملك ريتشارد قلب الأسد، الذى أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة متقلب المزاج، فيأمر يذبحهم جميعاً»^(١٩).

وتستمر صفحات تاريخ هذا الصراع فى تقديم الوقائع والمواقف والدروس والعبر والعظات للدراما التاريخية - فى هذا الميدان : التعامل مع الأسرى بين الشرق الإسلامى والغرب الاستعماري - فنجد موقف الحملة الفرنسية . التى قادها «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] والتى جاءت إلى بلادنا رافعة أعلام الثورة الفرنسية، وشعارات «الحرية» و«الإخاء» و«المساواة»، و«فلسفة الأنوار» . . نجد موقفها من الأسرى متجسداً فى صنيع بونابرت [١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م] مع أهل مدينة «يافا» - فى فلسطين - ومع آلاف الجنود الذين وقعوا فى الأسر، والذين استسلموا بعد أخذهم الأمان على حياتهم .

إن الدراسة التاريخية مدعوة لاستدعاء هذه الصفحة من صفحات التعامل الفرنسى مع الأسرى المسلمين، والتي صنعتها «بونابرت» سنة ١٧٩٩ م - أى فى الذكرى السبعمئة لصنيع الصليبيين الأول بمدينة القدس وأسراها !

ولقد سجل المؤرخون الفرنسيون هذه الصفحة، ونقلها عنهم المؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى [١٣٠٦ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٣ م] فقال :

«لقد وصل نابوليون بجيشه تجاه يافا يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ م، وكان الجيش العثمانى، بقيادة عبد الله باشا الجزائر [١١٣٢ - ١٢١٩ هـ / ١٧٢٠ - ١٨٠٤ م] محتعاً بها، فحاصرها نابوليون بجنوده، واستولى عليها يوم ٧ مارس، بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل، ودخل الفرنسيون المدينة، وأعملوا فيها السيف والنار .

لقد نهب الجنود الفرنسية يافا، وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان -

باعتراف المؤرخين الفرنسيين - واستمر النهب والقتل يومين متوالين ، واضطر الجنرال «روبان - Robin» - الذى عينه نابوليون قائداً للمدينة - أن يقتل بعض الجنود لإعادة النظام ، فذهب جهده عبثاً . ولم ينقطع النهب إلا بعد أن كُِّلَّ الجنود من الاعتداء وسفك الدماء .

ويقول بعض المؤرخين : إن الدماء التى سُفكت فى يافا ، وأشلاء الجثث التى تُركت بها عدة أيام ، كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر ، وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة الفرنسية على سورية^(٢٠) .

فنفس الذى حدث بالقدس - سنة ١٠٩٩ م - حدث فى يافا - سنة ١٧٩٩ م - عندما استمرت المجزرة والإبادة للأبرياء والأسرى حتى «كُلَّت أيدى القتلة» من القتل والذبح وسفك الدماء! . . وهذا التعبير : «كُلَّت الأيدى من القتل» نجده - بالحرف - فى وصف مجزرة القدس سنة ١٠٩٩ م بكتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب] - المجلد الأول ص ١٧٤ - كما نجده - بالحرف - فى وصف المذبحة الفرنسية فى يافا سنة ١٧٩٩ م !!

كما نجد ما صنعه الملك الإنجليزى «رينشارد قلب الأسد» مع آلاف الأسرى المسلمين ، الذين ذبحهم بعد أن أعطى لهم الأمان! . . يعيد صنعه القائد الفرنسى بوناپرت عقب استيلائه على يافا سنة ١٧٩٩ م ، مع ثلاثة آلاف من أسرى الجيش العثمانى ، الذين أُنْهَم على حياتهم ، ثم غدر بهم وذبحهم ، فى مجزرة وصفها المؤرخون الفرنسيون ، ونقل وصفها عنهم المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، فقال :

«ولم يكد ينقطع النهب لمدينة يافا ، حتى أعقبته مأساة أخرى أشد هولاً وقظاعة ، وذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة ، كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، أُثروا التسليم وإلقاء السلاح فى يد الفرنسيين بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابوليون ، وهما «بوهارنيه - Beauharnais» و«كروازيه - Croisier» . ومن هذه الشروط : أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم ، وتعهد الباوران بذلك باسم القائد العام - [بوناپرت] - وتلقاهم الفرنسيون كأسرى حرب ، ولكن نابوليون ، بعد أن فكر طويلاً فى أسرهم ، وتردد فى شأنهم ، أمر بإعدامهم

جميعاً رمياً بالرصاص . وحجته في ذلك أنه كان عاجزاً عن إطعامهم وحراستهم في بلاد نائية لم يستتب له فيها الأمر !! . فسيق أولئك الأسرى إلى شاطئ البحر وأعدوا جميعاً رمياً بالرصاص !!

ولقد نقل الرافعي عن المؤرخ «ريبو» - صاحب كتاب [التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية] - تأثير هذه المجزرة وعواقبها، الذي قال فيه : «إن ثلاثة آلاف من الأعداء قُتلوا مرة واحدة . ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم، وتضاعفت جهودهم للأخذ بالشار، ورأوا في مصير إخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجاً للإنسانية الفرنسية، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسي صراعاً إلى الموت . وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا»^(٢١).



تلك نماذج شاهدة - وهي مجرد نماذج - لصفحات من التاريخ، مليئة بالوقائع والدروس والعبير والعظات والدلالات والإيهات :

١ - صفحة النحالات غير المقدسة ضد الإسلام والمسلمين . . التي نواجهها اليوم . . كما واجهها أسلافنا منذ فجر تاريخ الإسلام . . وعبر هذا التاريخ .

٢ - وصفحة الكيانات الاستيطانية الاستعمارية المغرورة قسراً في قلب وطن الأمة . . تلك التي نواجهها اليوم على أرض فلسطين . . والتي واجهها أسلافنا - على ذات الأرض - في تاريخنا الإسلامي الوسيط .

٣ - وصفحة الغواية الاستعمارية للأقليات في بلاد الإسلام . . تلك التي نواجهها اليوم . . والتي واجهناها منذ الخروب الصليبية، وحتى الغزوة الاستعمارية الحديثة لبلادنا .

٤ - وصفحة الموقف من المقدسات الدينية . . وكيف تعامل معها الإسلام . . وكيف دنسها الغربيون، على امتداد تاريخ صراعمهم ضد الإسلام والمسلمين .

٥ - وصفحة التعامل مع الأسرى . . وكيف تعامل معها الإسلام وأمنته وحضارته . . وكيف وقف منها الغرب - موقف الغدر والخيانة والإبادة - على امتداد تاريخ صراعه مع الإسلام ؟

وإذا كانت هذه المصفحات - من التاريخ - هي مجرد نماذج وإشارات . . فإن هناك صفحات :

* التاريخ الإسلامى فى الانفتاح على الحضارات غير الإسلامية . . وسير وجهود العلماء الذين أبدعوا فى مختلف ميادين العلم المدنى منذ فجر ظهور الإسلام . .

* والتاريخ الإسلامى فى ميادين التربية وتهذيب القلوب .

* والتاريخ الإسلامى للمجاهدين الذين فضلوا الرباط على ثغور الإسلام على العكوف فى المحاريب .

* والتاريخ الإسلامى لتحرير المرأة . . والذى صنع - فى مدرسة النبوة - قيادات وريادات نسائية ، شاركت فى إقامة الدين وبناء الدولة وصناعة الحضارة . . واستمرت تعطى وتعلم وتبدع - عبر تاريخنا الحضارى - رغم ما أصاب حضارتنا من تراجع وهبوط وجمود . .

* والتاريخ الإسلامى مع الخوارج ، الذين مثلوا نزيهاً للدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية . . دون أن يحققوا أكثر من هذا النزيق !

* والتاريخ الإسلامى للمؤسسات الوقف ، التى موّلت - أهلياً - صناعة الحضارة الإسلامية ، وإقامة العدل الاجتماعى على مر هذا التاريخ .

وغیرها . . الكثير . . والكثير من صفحات التاريخ .

إنها صفحات ، يمكن للدراسات التاريخية أن تقدمها من خلال وسائل الإعلام المعاصر ، لتثقيف الأمة بالقيم الإسلامية ، المقارنة بالسلوكيات الغربية . . ولتصحح المفاهيم الإسلامية المعاصرة ، بحقائق الإسلام وتاريخ أمته . . ولترد كيد المفترين على الإسلام وأمته وحضارته وتاريخه .

إنها صفحات من الوعى بالتاريخ - وليس مجرد القراءة للتاريخ - تضع - بالدراسات المقارنة - حقائق الإسلام إزاء الموقف من المقدسات ، فى مواجهة صفحات الحزى والعار التى جسدها تاريخ الغرب الاستعماري إزاء مقدسات الإسلام والمسلمين .

الهوامش:

- (١) ابن القيم: [زاد المعاد من هدى خير العباد] ج ٣ ص ٥٤٩، ٥٥٠. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٧ م.
- (٢) د. محمد حميد الله - محقق -: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١١١ - ١٢٨، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦ م.
- (٣) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦، طبعة ليدن، سنة ١٩٢٠ م.
- (٤) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٣٤٥، ٣٤٦.
- (٥) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة - ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.
- (٦) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ١٩٤ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.
- (٧) المرجع السابق. ص ٦٢.
- (٨) ساويرس بن المقفع: [تاريخ البطارقة] ج ١ - والنقل عن: سناء المصرى [حكايات الدخول] ص ١٣٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م.
- (٩) المقرئى: [الخطوط] ج ٣ ص ٥٣٧، ٥٣٨. طبعة دار التحرير - القاهرة. والكندى. أبو يوسف - [كتاب الولاة والقضاة] ص ١٣٢. طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ م.
- (١٠) سيجريد هونكة: [الله ليس كذلك] ص ٢٢. ترجمة: د. غريب محمد غريب، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م.
- (١١) مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول. ص ١٧٢، ١٧٦. ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥ م.

(١٢) ول ديورانت [قصة الحضارة] المجلد الرابع : الجزء الرابع . ص ٤٦ - ٥٣ . طبعة القاهرة .

(١٣) الجبرتي : [مظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] ص ٧٢ . تحقيق : د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

(١٤) عبد الرحمن الرافعي : [ثورة سنة ١٩١٩ م] ج ١ ص ١٧٥ - طبعة دار الشعب - القاهرة .

(١٥) المصدر السابق . ص ٧٦ - ٧٨ .

(١٦) صحيفة [العالم الإسلامي] - مكة المكرمة - العدد ١٨٦٧ في ١٦ شوال سنة ١٤٢٥ هـ / ٢٩ نوفمبر سنة ٢٠٠٤ م .

(١٧) سيجريد هونكة : [الله ليس كذلك] ص ٢٢ . ترجمة د . غريب محمد غريب . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٥ م .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢٠) عبد الرحمن الرافعي : [تاريخ الحركة القومية] ج ٢ ص ٢٩ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

(٢١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٠ .



المصادر والمراجع

- ✽ ابن عبد الحكم : [فتوح مصر وأخبارها] طبعة لندن سنة ١٩٢٠ م .
- ✽ ابن القيم : [زاد المعاد من هدى خير العباد] تحقيق : شعيب الأرنؤوطي ، عبد القادر الأرنؤوطي . طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م .
- ✽ الجبرتي : [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] تحقيق : د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .
- ✽ سناء المصري : [حكايات الدخول] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م .
- ✽ سيجريد هونكة : [الله ليس كذلك] ترجمة : د . غريب محمد غريب . طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٥ م .
- ✽ د . صبرى أبو الخير سليم : [تاريخ مصر في العصر البيزنطي] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م .
- ✽ عبد الرحمن الرافعي : [ثورة سنة ١٩١٩ م] طبعة دار الشعب - القاهرة .
- ✽ [تاريخ الحركة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .
- ✽ الكندي - أبو يوسف : [كتاب الولاة والقضاة] طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ م .
- ✽ د . محمد حميد الله - محقق : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- ✽ المقرئى : [الخطط] طبعة دار التحرير - القاهرة .
- ✽ مكسيموس مونروند : [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، المدعوة حرب الصليب] ترجمة مكسيموس مظلوم . طبعة أورشلين سنة ١٨٦٥ م .
- ✽ ول ديورانت : [قصة الحضارة] طبعة القاهرة .
- ✽ يوحنا النقيوسى : [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة : د . عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .
- ✽ دوريات : [العالم الإسلامى] - مكة المكرمة .



خيرية الأمة

«شروط مكتسبة لا عنصرية موروثة»

تقعيد

عندما يكون الحديث عن الصفات والشماثل التي يتحلى بها الإنسان - على مستوى الأفراد أو الجماعات - فإن هناك حدوداً فارقة بين «الصفات اللصيقة» وبين «الصفات المكتسبة» . . فإن يكن الإنسان طويلاً أو قصيراً . . أسود أو أبيض أو أصفر . . مرسل الشعر أو أجعده . . عربياً أو أعجمياً . . شرقياً أو غربياً . . من سكان الشمال أو الجنوب . . إلخ . . إلخ . . فهي جميعاً - وأمثالها - «صفات لصيقة» لا يتفاضل فيها أو بها إنسان على إنسان أو أمة على أمة؛ لأنها صفات جبلية وطبيعية، لا دخل للإنسان في الاتصاف بها، ولا حيلة في تغييرها، حتى إذا أراد لها التغيير . .

ولذلك، فليس من العدل ولا من الحكمة أن يتفاضل الناس بهذا النوع من الصفات، وإلا كان ذلك تكليفاً للناس بما لا يطاق، وبما لا يستطيعون إليه سبيلاً ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما الصفات التي يتم فيها وبها التفاضل بين الناس، فهي «الصفات المكتسبة»، التي يخضع اكتسابها والتفاوت في درجتها للإرادات والطموحات والقدرات والمهارات، وذلك من مثل «الإيمان» و«التقوى» و«محاسن الأخلاق» و«البراعة في العلوم والفنون والآداب»، وفي «المهارات» التي تضع العلوم والفنون في الممارسات والتطبيقات . . فهذه «الصفات المكتسبة» يتمايز الناس، أفراداً وجماعات، ويتفاضلون ويتسابقون على درجات سلم «الخيرية»؛ لأن اكتساب هذه الصفات والتسابق في ميادينها هو مما يستطيعه الكافة، بحسب ما لديهم من عزائم وإرادات وقدرات ومهارات، وبقدر ما يبذلون في ذلك من مجهودات وتضحيات .

ولهذه الحقيقة البديهية ، وجدنا العدل الإلهي يحدثنا عن أن التكريم - تكريم الخالق - سبحانه وتعالى - إنما كان لمطلق بنى آدم . . «فالخلق» صفة لصيقة بجميع بنى آدم ، والنفخ فيهم من روح الله - وهو سر التكريم - عام يستوى فيه الجميع ، وكذلك «التسخير» الإلهي لكل قوى الطبيعة للإنسان - مطلق الإنسان - هو من القضاء الختم الذى شاءته الحكمة الإلهية : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وتحت هذا التكريم العام يأتى التفاضل والتفاوت والتمايز فى الصفات الإنسانية المكتسبة ، ومنها «التقوى» و«العلم» - مثلاً - فيقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . فالخلق من ذكر وأنثى ، وتقسيم الخلق إلى شعوب وقبائل ، هما من الصفات اللصيقة . . أما التفاضل بالتقوى فهو مما يكتسبه الإنسان ، وتتفاوت فيه الدرجات والقدرات . . وكذلك الحال مع «العلم» : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .



خيرية مشروطة

ولهذه الحقيقة من حقائق العدل الإلهي ، كان حديث القرآن الكريم عن خيرية الأمة الإسلامية - وعن أنها خير أمة أخرجت للناس - حديثاً عن «خيرية مشروطة» باكتساب هذه الأمة لمجموعة من «الصفات المكتسبة» ، تتوقف خيريتها - ومقادير هذه الخيرية - على ما حصلت هذه الأمة من هذه الصفات . . وليس حديثاً عن «خيرية مطلقة» ، تدعيها هذه الأمة بحكم العرق أو الجنس أو اللون أو الميراث أو التاريخ ، أو أية صفة من «الصفات اللصيقة» التي لا فضل لها في تحديد معايير الخيرية ودرجاتها .

وإذا نحن ذهبنا إلى السياق القرآني الذي تحدث عن خيرية الأمة الإسلامية ، وتميزها بهذه الخيرية عن غيرها من الأمم ، نجد مصداق هذا المنهاج الذي تحدثنا عنه وحددناه . . ففى هذا السياق - الذي تحدثت فيه آيات سورة آل عمران : ١٠٢ - ١١٠ عن هذه الخيرية - نجدها مشروطة باكتساب هذه الأمة الإسلامية ، وتحقيقها وتطبيقها للعديد من القيم والمبادئ والشروط . .

وذلك من مثل :

١ - أن تكون هذه الأمة «أمة مؤمنة» ، جامعة في إيمانها كل أركان الإيمان - الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وبدين الله الواحد ، وبسائر الكتب والنبوات والرسالات - وذلك حتى لا تكون هذه الخيرية مجرد «منافع» دنيوية ، يحسنها العقل المجرد عن الشرع ، بعيداً عن الانتماء لخالق الخير وواهبه للإنسان .

٢ - وأن ترتقى هذه الأمة - كي تحقق الخيرية على غيرها من الأمم - على سلم الإيمان ، فتحقق مستوى «التقوى» ، التي هي الضمير الحى للمؤمن ، الذي يتقوى

وينجنب كل ما يغضب مولاه . . . وللخيرية في هذا المستوى درجات ، أعلاها أن نتقى الله حق تقاته ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] . . . وأدناها أن نتقى الله قدر المستطاع ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] . . . وللاستطاعة - هي الأخرى - درجات متفاوت في طلبها وتحقيقها المتقون .

٣ - وأن لا تكون هذه التقوى مقصورة على ذات الفرد التقى ؛ لأن الإسلام دين الجماعة ، وكثير من فرائضه وتكاليفه جماعية واجتماعية ، لا تتأتى ولا تُقام إلا في وطن وأمة وجماعة واجتماع ، حتى إن رهبانية الإسلام كانت الجهاد في سبيل الله ، وليست العزلة الفردية التي تبغى الخلاص الفردي عن طريق إدارة الظهر للمجموعة والمجموع . . . ولذلك كانت خيرية الأمة الإسلامية مرهونة بتحقيق فريضة التألف والألفة والاتحاد والاعتصام بحبل الله . . .

٤ - أما الشرط الرابع لخيرية الأمة الإسلامية ، فإنه شرط عام يشمل سائر فرائض العمل الاجتماعي العام . . . إنه شرط أن تكون هذه الأمة أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . . . مغيرة للمنكر إذا وقع . . .

* إقامة العدل - مع الذات ومع الآخر - حتى لو كنا نكرهه ، أو حتى نحاربه .

* وإشاعة منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة - في الفكر والتطبيق .

* وإقامة الشورى - في الأسرة . . . والمجتمع . . . والدولة .

* والتكافل الاجتماعي ، الذي يحقق عدالة التوازن ، والتوازن العادل بين شرائح

المجتمع الإسلامي وطبقاته حتى تكون الأمة كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

* وتحقيق قيمة الحرية - المضبوطة بضوابط الشريعة الإلهية - في مختلف ميادين

الحياة - الفكرية والعملية .

* والجهاد لنصرة المظلومين وتحرير المستضعفين في الأرض .

* والتسابق على طريق الخيرات التي تحقق سعادة الناس في الدنيا والآخرة .

كل هذه الفرائض الاجتماعية - وأمثالها - هي بعض من التكاليف التي وضعها الإسلام تحت الفريضة العامة والجامعة: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» . . . وهي التي أناطها بكل المكلفين - رجالا ونساء: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] .

وبإقامة هذه الفرائض الاجتماعية - والاتصاف بثمراتها - تتحقق خيرية الأمة الإسلامية . . . بل إن غيبة هذه الفرائض الاجتماعية وصفاتها يسلب من الناس حتى معنى «الأمة - الجماعة» . . . وليس فقط صفة «الخيرية» . . . لأنهم يكونون عندئذ مجرد «أفراد» مبعثرين ، وليسوا «أمة» من الأمم ! .



عن ذلك كله تحدث القرآن الكريم ، عندما عرض لخيرية الأمة الإسلامية ، وشروط هذه الخيرية ، وصفات الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس : . فقال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢٠٢) واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٢٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٢٠٤) ولا تكونوا كالأذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (٢٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأمَّا الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٢٠٦) وأمَّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (٢٠٧) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين (٢٠٨) ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور (٢٠٩) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١١٠] .

فجماع الصفات التي تحقق خيرية الأمة الإسلامية - إذا أردنا تكثيفها - هي :

١ - الإيمان . . الذى هو الشرط فى حفظ الأعمال من الإحباط . .

٢ - والعمل الصالح . . الذى تدرج كل شعبه وتكاليفه وغرائضه تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وجميع شروط هذه الخيرية وصفاتها ومؤهلاتها « مكتسبة » ، وأبواب مياديتها مفتوحة أمام سائر عباد الله . . وليست صفات « الصيقة » ، ولا هى حكر على من يتسمون بأسماء المسلمين ، ويدعون أنهم مسلمون - ففارق بين أن يكون الناس مجرد مسلمين ، وبين أن يكونوا الأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس . . بل إن الآية تقول : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . . فأبواب الخيرية مفتوحة أمام الجميع ! . . وهى موصودة أمام الذين أوصدوها باختيارهم عندما كفروا بالتوحيد . . وفرقوا بين الرسل . . وكتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله . . وعندما ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] .



- ٣ -

التعريف بالمصطلحات

ولأن هذا هو الموقف القرآني من خيرية الأمة الإسلامية . . . وتلك هي صفاتها وشروطها، كان لزاماً تحرير مضامين المصطلحات في هذا المبحث . . . مصطلحات :

١ - الأمة . .

٢ - والخير . .

٣ - والمعروف . .

٤ - والمنكر . .

٥ - والفارق بين «الأمر . . . والنهي» وبين «التغيير» . .

* ولأن شروط تكوين «الأمة» هي الأخرى شروط «مكتسبة»، وليست «نصيقة» - كالعرق والجنس واللون - كان معناها ومفهومها - في العربية - لغة القرآن الكريم - وفي الإسلام مفهوماً مفتوحاً أبوابه لكل من يكتسب الشروط والصفات التي يطلق مصطلح «الأمة» على المكتسبين لها والمتصفين بها . . . وكان تحقق معنى هذه الأمة مستمراً دائماً وأبداً . .

فالأمة - كما يقول الراغب الأصفهاني [٥٠٢ هـ - ١١٠٨ م] - : «كل جماعة يجمعها أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييراً أو اختياراً» ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨] . . أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع . . . ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ [البقرة: ٢١٣] . . صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة . . . ﴿ولو شاء الله

لجعلكم أمة واحدة ﴿المائدة: ٤٨﴾ . . . أى فى الإيمان . . . ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ [آل عمران: ١٠٤] أى : جماعة يتخبرون العلم والعمل الصالح . يكونون أسوة لغيرهم . . . ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف: ٢٣] . . . أى على دين مجتمع . . . ﴿وادكر بعد أمة﴾ [يوسف: ٤٥] : أى بعد حين ، أى بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين . . . ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً للهِ﴾ [النحل: ١٢٠] . . . أى قائماً مقام جماعة فى عبادة الله . . . ﴿١١﴾ .

ونحن نلاحظ أن جوامع الأمة، وإن صدرت عن التسخير الإلهى فى «الحيوان» و«الزمان» فإنها كانت دائماً اختيارية مكتسبة فى عالم الإنسان . . . وهذا ملحظ مهم له دلالة فى كون الخيرية - خيرية الأمة الإسلامية - هى ثمرة للشروط والصفات المكتسبة، المفتوحة أبواب ميادينها أمام الناس كافة . . . ومن ثم فإن هذه الخيرية لا علاقة لها بالصفات اللصيقة، ولا بالاحتكار النابع من أوهام «العنصرية» التى سادت هذا المفهوم خارج إطار الإسلام! . . .

هذا عن مصطلح الأمة . . .

﴿ أما مصطلح «الخير» فإنه - كما يقول الراغب الأصفهاني - «ضريان» :

١ - خير مطلق، وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال وعند كل أحد . . . كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشئ النافع .

٢ - وخير مقيد، وهو ما يكون خيراً لواحد شراً للآخر، كالمال الذى ربما يكون خيراً لزيد وشراً لعمرو، ولذلك وصفه الله - تعالى - بالأميرين فقال فى موضع : ﴿إن ترك خيراً﴾ [البقرة: ١٨٠] . وقال فى موضع آخر : ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] (٢) .

﴿ أما مصطلح «المعروف» فهو - عند الراغب الأصفهاني - : «اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه» .

﴿ ويقابله «المنكر» : الذى يُنكر بالعقل والشرع معاً (٣) .

رؤية حضارية لخيرية الأمة

ولقد كان الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] من أكثر المفسرين المجتهدين الذين وقفوا وقفات عبقرية وواعية أمام هذه الآيات التي تحدثت عن صفات الخيرية في الأمة الإسلامية، مفصلاً في الأفاق والمقاصد الحضارية - العصرية والمستقبلية - التي تجعل هذه الخيرية سبيلاً للإقلاع الحضارى، الذى يعتق المسلمون وينفذهم من المازق الذى يأخذ منهم بالخناق .

« فهو يعرف « الخير » - المراد فى هذه الآيات - بأنه « الإسلام ، الذى هو دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم ، وهو الإخلاص لله تعالى ، والرجوع عن الهوى إلى حكم الله ، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطاً وشهداء على الناس . . . »

« وخير أمة أخرجت للناس . . . مفيد بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر »^(٤) .

فليست كل قوة محمودة . . . وليس كل تمكين فى الأرض يكون خيراً - بهذا المعنى الإسلامى للخير والخيرية - ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [الروم : ٩] . « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (٥٦) وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين (٥٧) وكانوا ينتحون من الجبال بيوتا منيعة (٥٨) فأخذتهم الصيحة مصبحين (٥٩) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٨٠ - ٨٤] . « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم ليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٦٠) أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : ٥١ - ٥٢] .

فهناك «مفاهيم فرعونية» للخيرية، لا علاقة لها بالمفهوم الإسلامى لهذه الخيرية .
والذى يجب أن يركز على إقامة الفرائض التى تجمعها فريضة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج : ٤١] .

« ولقد جاء تعريف الإمام محمد عبده لمصطلحي «المعروف» و«المنكر» قريباً من
تعريف الراغب الأصمهانى لهما . .

« فالمعروف - عند إطلاقه - : يراد به ما عرفته العقول والطباع السليمة، والمنكر :
ضده، وهو ما أنكرته العقول والطباع السليمة . وإنما المرشد إليه - مع سلامة الفطرة -
كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر، والعمل، وهو ما لا يسع أحد جهله، ولا يكون
المسلم مسلماً إلا به»^(٥) .

« ولقد وقف الإمام محمد عبده وقفة ذكية أمام اختلاف المفسرين فى معنى «من» فى
آية ﴿وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . . . وهل معنى «من» هو «البيان»، فتكون الخيرية لكل
الأمة وعامتها؟ وتكون فرائض الدعوة إلى الخير - الإسلام - والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر واجبة على كل آحاد الأمة؟؟

أم أن معنى «من» هو «التبويض»، فتكون فريضة الدعوة إلى الخير - الإسلام -
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة بفئة بعينها، هى «الأمة الخاصة» التى تتكون
من النصفوة والنخبة والقيادات التى تختارها - لهذه المهمة - الأمة العامة؟؟

لقد وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وقفة ذكية أمام هذا الاختلاف الشهير
بين المفسرين لمعنى «من» فى هذه الآية . . وانتهى - بعد الشرح والتفصيل - إلى رأى
الذى يجمع بين التفسيرين . .

فنحن - بإزاء جماعة المسلمين - أمام أمتين، أو أمة ذات مستويين :

١ - المستوى العام للأمة العامة . . والدعوة إلى الخير - الإسلام - والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر - مثلها كمثلى الإيمان بالله - فريضة على كل واحد من أفراد هذه

الأمة، بحسب المقدرة والاستطاعة والإمكانات التي لدى كل فرد من الأفراد .

٢- والمستوى الخاص للأمة الخاصة، ذات المؤهلات الأعلى والقدرات الأكبر في النهوض بهذه الفريضة . . واختيار هذه الأمة الخاصة وانتخابها - وكذلك مراقبتها ومحاسبتها وتغييرها - هو فرائض واجبة على الأمة الإسلامية بالمعنى الشامل والعام . .
وفي هذا التفسير الجامع يقول الأستاذ الإمام :

« وإذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفاً بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقتضى الوجه الأول في تفسير الآية - على أن « من » بيانية - فإنهم مكلفون بمقتضى الوجه الثاني - على أن « من » للتبويض - أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه . . فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه مع الآخرين . ولا مشقة في هذا علينا، فإنه ييسر لأهل كل قرية أن يجتمعوا ويختاروا واحداً منهم أو أكثر، أن يختاروا جماعة يصح أن يطلق عليهم لفظ الأمة، ويعملوا ما تعمله بالاتحاد والقوة ليتولوا إقامة هذه الفريضة فيها، كما يجب في كل مجتمع إسلامي - سواء كان في الخواضر أو البوادي - فإن معنى الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التي تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم - حتى في إقامة هذه الفريضة عند تشعب الأعمال فيها - كأنهم شخص واحد .

وهذه الأمة يدخل في عملها الأمور العامة التي هي من شأن الحكام، وأمور العلم وطرق إفاذه ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة الشخصية . ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة، وفي معنى الأمة القوة والاتحاد، وهذه الأمور لا تتم إلا بالقوة والاتحاد . . وأعمال هذه الأمة لا تتم إلا بأمور كثيرة، منها :

١ - العلم التام بما يدعون إليه . .

٢ - والعلم بحال من توجه إليهم الدعوة . .

٣ - ومناشئ علم التاريخ العام . .

٤ - وعلم تقويم البلدان . .

٥ - وعلم النفس . .

٦- وعلم الأخلاق . .

٧- وعلم السياسة .

٨- والعلم بالفنون والعلوم . .

٩- ومعرفة الملل والنحل .

١٠- والعلم بلغات الأمم التي تراد دعوتها . .

ثم إن كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضى أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة، فحاسبها على تفريطها، ولا تعيد انتخاب من يقصر فى عمله مثله، فالأمة الصغرى المنتخبة - بفتح الحاء - تكون مسيطرة على أفراد الأمة الكبرى المنتخبة - بكسر الحاء - وهذه تكون مسيطرة على الأمة الصغرى، وبهذا يكون المسلمون فى تكافل وتضامن . . فها هنا فريضتان :

إحداهما : على جميع المسلمين . .

والثانية : على الأمة التى يختارونها للدعوة .

ولا يفهم معنى هذا حق الفهم إلا بفهم معنى لفظ الأمة، وليس معناه «الجماعة» كما قيل، وإنما اختيار هذا اللفظ . والصواب أن الأمة أخص من الجماعة، فهى الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء فى بنية الشخص، والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل هو أن يكون لكل فرد إرادة وعمل فى إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة، حتى إذا رأوا منها خطأ وانحرفا أرجعوها إلى الصواب .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول، لا سيما زمن أبى بكر [٥١ ق هـ - ١٣ هـ / ٥٧٣ م - ٦٣٤ م] وعمر [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م] على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين - وينهاه فيما يرى أنه الصواب، ولا بدع فاختلاف على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين، وقد صرح عمر بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . . (٦)

وبهذا التفسير الجامع لمعاني حرف «من» - البيان . . والتبويض - تكون أعباء الخيرية وتكاليفها ، وكذلك ثمراتها وفضائلها عامة في الأمة الإسلامية ، بالمعنى العام للأمة ، وبالمعنى الخاص المتمثل في الصفوة والنخبة والريادات والقيادات ، فلا تكون الخيرية حكراً على فريق دون غيره من الفرقاء .

وعلى حين اتجه بعض المفسرين لهذه الآيات القرآنية - آيات الصفات والشروط المحققة لخيرية الأمة الإسلامية - إلى تضيق نطاق من تجب عليهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من باب آخر - فأخرجوا من هذا النطاق من كان غير مؤتمراً بالمعروف ومنتها عن المنكر . . ومن كان غير آمن على نفسه إذا هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . . رأينا الأستاذ الإمام يرفض هذا الاتجاه ، ويؤكد على وجوب هذه الفريضة الجامعة على كل المؤمنين بالإسلام . . فيقول - متعجبا من هذا الرأي - :

«ومن عجب أن بعض الناس اشترطوا لهذه الفريضة - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - شرطاً لم يأذن به الله ، ولم ينزله في كتابه ، وهو أنه لا يأمر وينهى إلا من كان مؤتمراً ، ومنتهياً . .

ويشترط بعضهم للوجوب شرطاً آخر ، وهو الأمن على النفس . . وكان ينبغي أن يقولوا : على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا ينفر الناس ، أو لا يحملهم على إيذائه ، فإن الله يقول : إنه لا نجاة للناس إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، ولم يشترط في ذلك شرطاً .

إن الله - تعالى - أمر الناس بالتواصي بالحق والدعوة إلى الخير ، وأمرهم أن يعدوا لذلك عدته ويعرفوا سبله ، وهي مبسطة في السنة . . فهذه هي الحكمة ، وبها تجب القدوة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] . . وإن لن تكون متبعين له حتى نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر على سنته وطريقته . . (٧)

كذلك يرفض الأستاذ الإمام محمد عبيد الآراء التي تذهب إلى تضيق نطاق

التكليف بهذه الفريضة الجامعة لشروط الخيرية وصفاتها، عن طريق اشتراط «قدرات متميزة» فيمن يقوم بها . . . وبنه الأستاذ الإمام على أن ذلك إنما حدث لأصحاب هذا الرأي من الخلط بين «الأمر» بالمعروف و«النهي» عن المنكر، وبين «التغيير» للمنكر . . . فالتغيير هو الذى يحتاج إلى شروط وقدرات وإمكانات وتخصصات؛ لأنه «تغيير» للمنكر بعد وقوعه فهو «فعل» يقتلع «واقعا» . . . أما «الأمر» . . . و«النهي» فإنهما فريضة عامة وشاملة لكل أفراد المؤمنين، وجساعتهم على السواء . . . وهما تنبيه وتحذير للحيلولة دون تجسد المنكر فى الواقع والتطبيق . . .

ينبه الأستاذ الإمام على هذه الحقيقة، فيقول :

«وهنا يخلطون . . . بين النهى عن المنكر وتغيير المنكر الذى جاء فى حديث : «من رأى منكم منكراً فليغيره . . .» - رواه مسلم والترمذى والنسائى - . وهنا شىء آخر غير النهى البتة، فإن النهى عن الشىء إنما يكون قبل فعله، وإلا كان رفعاً للواقع أو تحصيلاً للحاصل، فإذا رأيت شخصاً يغش السمن مثلاً وجب عليك تغيير ذلك ومنعه بالفعل إن استطعت، فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص، فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان، وهو غير خاص بنهى الغاش ووعظه، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى يمنعه بقدرة فوق قدرتك . أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله . وللنهي طرق كثيرة وأساليب متعددة، ولكل مقام مقال .

نعم، إن دعوة الأمة غيرها من الأمم إلى الخير الذى هى عليه لا يطالب بها كل فرد بالفعل، إذ لا يستطيع كل فرد ذلك، وإنما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه حتى إذا عن له بأن تلقى أحداً من أفراد تلك الأمم دعاه، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله، وإنما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته، وسائر الأفراد يقومون به عند الاستطاعة، فهو يشبه فريضة الحج، وهى فرض عين ولكن على المستطيع .

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكد من فريضة الحج، ولم يشترط فيها الاستطاعة لأنها مستطاعة دائماً . . .

وجملة القول، أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض حتم على كل مسلم . . . وكون هذا حفاظاً وحرزاً للأمة ظاهر، فإن الناس إذا تركوا دعوة

الخير، وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة، وكانوا أفذاذاً متفرقين لا جامعة لهم. فلا بد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش. فهذا ليس من فروض الكفاية التي يتوكل فيها الناس كصلاة الجنازة. ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا يتظر غيره. (٧).



هكذا تجلت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فريضة جامعة لصفات الخيرية في الأمة الإسلامية، وهي فريضة يتوجه التكليف الإسلامي بها إلى الكافة؛ لأن شروطها وصفاتها مكتسبة، مفتوحة أبواب مبادئها أمام أصحاب العزائم والإرادات من كل الأجناس والطبقات. وليست حكراً على سلالة أو جنس أو لون أو طبقة، كحال الصفات اللصيقة، التي هي جبلية لا مجال فيها للاجتهاد والتغيير.

وهكذا رأيناها في التصور الحضاري للإمام محمد عبده معبرة عن خلاصة «مشروع للنهضة»، تصلح به الأمة آخرها، كما سبق وأصلحت به أولها. وليست مجرد صورة تقليدية للحض على العبادات الفردية، كما تصورها ويصورها نفر من أهل الجمود والتقليد.

إنها إقامة النظام الإسلامي المؤمن، والعاقل والشامل، المحقق للأمانة التي حملها الإنسان الخليفة لله - سبحانه وتعالى -.. أمانة «العمران المؤمن» لهذا الوجود.

في إقامة «العمران المؤمن» تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، ذلك الذي يتحقق فيه وبه انتماء الأمة إلى بارئها - سبحانه وتعالى - متطلعة أرواحها إلى مصدر الروح الإلهي الذي منه كان الشرف والتشريف والتكريم والتفضيل للإنسان حتى على الملائكة المقربين.

وبقيام هذا «العمران المؤمن» على «التقوى»، التي هي الثمرة الطيبة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، عندما تثمر هذه الفريضة «النظام العام». والآداب العامة، فتكون الخيرية - في كلمات قليلة - هي الأمانة التي عرضها الله - سبحانه وتعالى - على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. . .

﴿ إن العدل اسم من أسماء الله - سبحانه وتعالى - وعلى موازين العدل قامت عوالم السماوات والأرضين .

﴿ وفي الاجتماع الإنساني ، جاءت الشريعة الإلهية عدلاً كلياً . وحكمة كلياً . .

﴿ ولذلك ، جعل الله للخيرية في الأمم والشعوب والحضارات معايير غير خاضعة للمحايمة . ولا للميراث . . ولا نلدعاء ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ [النساء : ١٢٣] . . ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبا : ٢٤] . . ﴿ وإن تتولوا قومنا غيركم ثم لا يكوونا أمثالكم ﴾ [محمد : ٣٨] .

أما الذين يجعلون من الخيرية ميراثاً عن الآباء والأجداد - مع التخلي عن شروطها وصفاتها ومؤهلاتها - فإنهم أشبه ما يكونون باللصوص الذين يأكلون التراث أكلاً لما . . أو الذين لا يرون فى تاريخهم الحضارى أكثر من « أكفان للموتى » . . طامعين فى معاندة السنن الإلهية الحاكمة لأسباب التقدم والتخلف ، والنهوض والانحطاط ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٣٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (٣٣٨) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٣٣٩) إن يمسبكم فرح فقد مس القوم فرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (٣٤٠) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (٣٤١) أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿

[آل عمران : ١٣٧ - ١٤٢] . .

فأبواب الخيرية مفتوحة على مصاريعها أمام الأفراد والأمم والشعوب . . وشروطها وصفاتها ومؤهلاتها هى نعم إلهية متاحة للراغبين العاملين فى مختلف الميادين .

وإلا فإن الذين فضل الله آباءهم على العالمين ، يمكن أن يكونوا الأذلة الملعونين أينما تقفوا إلا يحيل من الله الذى لا تحابى عدالته أحداً من العالمين .

عنصرية نزعة شعب الله المختار

وفي مقابل هذا المتهاج الإسلامي الذي يُخضع الخيرية - في الأمم والشعوب والحضارات - للسببية والأسباب، ويجعلها ثمرة للصفات المكتسبة، المتاحة للأفراد والجماعات . . . وجدنا وتُعد النزعة العنصرية في «التراث اليهودي»، وفي «تاريخ» الجماعات اليهودية، وفي «الممارسات الصهيونية» القائمة في واقعنا المعاصر الذي نعيش فيه .

❖ لقد حوّلت هذه النزعة العنصرية شريعة اليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام عن جوهر الشوحيد، الذي يجعل الله - سبحانه وتعالى - واحداً واحداً ورثاً لكل العالمين، إلى حيث احتكرته لذاتها - على قلة عدد أصحابها - جاعلة للشعوب الأخرى ألقتها!

❖ وحوّلت هذه النزعة العنصرية معايير التدين باليهودية عن أصولها الطبيعية والمنطقية . . . فبدلاً من أن يكون الإيمان الديني، والالتزام بمنظومة القيم والأخلاق، وعبادة الله وفق ما جاءت به الشريعة، هي معايير «اليهود»، جعلوها معايير عرقية وعنصرية - بيولوجية! - . . . فاليهودي - في هذه النزعة العنصرية - هو المولود من أم يهودية حتى ولو انقطعت علاقاته بجوهر الدين! . . . وبعبارة المفكر اليهودي «إسرائيل شاحك»: «فإن كون الإنسان يهودياً يعتمد على الانحدار من سلالة الأم، وليس على الإيمان الفعلي للشخص»^(٩١) . . .

❖ وحوّلت هذه النزعة العنصرية معايير الخيرية من الأسباب والصفات الموضوعية والمكتسبة، إلى حيث جعلوها احتكاراً موروثاً في نطاق هذه القلة التي تدعى الانساب إلى العبرانيين القدماء . . . فقالوا: «نحن أبناء الله وأحباؤه» [المائدة: ١٨] . . . وزعموا

أنهم وحدهم - وبصرف النظر عن المؤهلات والصفات - هم «شعب الله المختار»، الذين اصطفاهم واختارهم، بل و«قدسهم» دون العالمين... وفوق جميع العالمين!..

✽ وانطلاقاً من هذه النزعة العنصرية، التي احتكرت الخيرية، وارتفعت بها إلى مستوى «القداسة» و«العصمة» - عصمة الذين يفعلون ما يريدون، ولا يسألون عما يفعلون! - كان العداء والاحتقار... والكراهية... والاستباحة لكل الأغيار - الذين يبلغون اليوم أكثر من ستة مليارات نسمة - في مقابل ثلاثة عشر مليوناً من اليهود!.. فكل هؤلاء الأغيار - أي كل خلق الله تقريباً - مستباحة حرمانهم... وأعراضهم... ودمائهم... وأمواهم... وأوطانهم؛ لأنهم ليسوا من «شعب الله المختار»، المقدس دون جميع الشعوب، وفوق جميع الشعوب!..

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النزعة العنصرية عندما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]... ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]... ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]... ﴿أَوْ كُلُّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]..

✽ لقد فتح القرآن الكريم أبواب النجاة أمام كل الذين يؤمنون بوحدةانية الله... ويؤمنون بالغيب... ويعملون الصالحات، على تنوع الشرائع الإلهية التي يتخذونها سبيلاً للتعبير عن أصول هذا الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]..

✽ ودعا القرآن الكريم كل أمة الرسالات السماوية إلى كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]..

❖ وقررت السنة النبوية - في الممارسات الخيائية والاجتماعية وحقوق المواطنة - كامل المساواة لكل البشر، على اختلاف الأجناس والألوان والمعتقدات: «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»^(١٠).

❖ ولقد نهض رسول الله ﷺ احتراماً لحرمة جنازة يهودي - غير مسلم - . فلما تساءل بعض أصحابه:

- يا رسول الله، إنها جنازة يهودي؟ قال صلى الله عليه وسلم:

- «أليست نفساً؟» .

وصنع ذلك صحابته مع جنازات مجوسية إبان التحرير الإسلامي للعراق - رواه البخاري ومسلم - .

❖ وكتب الإمام علي بن أبي طالب [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١ م] - كرم الله وجهه - في عهد تولية واليه على مصر «الأشتر النخعي» [٣٧ هـ - ٦٥٧ م] - يعلمه هذه القيم الإسلامية، فقال له: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»^(١١).

❖ لكن النزعة العنصرية لعقيدة «شعب الله المختار» قد جعلت اليهود - بنص الأسفار التي كتبوا بأيديهم ثم قالوا هي من عند الله . - وينص شروحها المرجعية في [التلمود] - قد جعلتهم يقولون:

- «إن كلمة «نفس» تعني اليهودي، ويستثنى منها غير اليهود والكلاب»^(١٢).

- «وإن الأغيار ليسوا من الإنسانية. . وإغاهم شياطين. . وكلاب. . وحمير. . وخنازير. . فكل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أي شيء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي، كما أن وجود غير اليهودي مسألة غير جوهرية في الكون، فلقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط»^(١٣).

* وانطلاقاً من هذه النزعة العنصرية في احتكار الخبيرة . . بل واحتكار الإنسانية! . . أفاض [التلمود] . . الذى هو جماع الشريعة عند اليهود . . فى الحُص على :

- لعن الأغيار . . وأمهاتهم . . بل وموتاهم ؛ لأنهم كلاب! . . والدعاء عليهم بالدمار! (١١).

- وإسقاط الأهلية عن كل الأغيار! (١٥).

- وإباحة النَّصَب على الأغيار ، والخداع لهم! (١٦).

- وإباحة سرقة الأغيار! (١٧).

- والحُص على الربا فى التعامل مع الأغيار! (١٨).

- بل وإباحة الزنا بنسائهم «لأن كل النساء غير اليهوديات عاهرات»! (١٩).

* وإذا كانت مجلدات [التلمود] هى الشريعة المعتمدة التى شرحت أسفار [العهد القديم] ، فإن هذه الأسفار هى المرجعية العليا المعتمدة ، لا عند اليهود فقط ، بل وعند النصارى أيضاً ، وهى ينبوع الطافح بهذه العنصرية الدموية ، المكونة لثقافة الكراهية السوداء ضد سائر الأغيار ، من مختلف الأمم والشعوب ، والديانات والحضارات . . أى ضد سائر خلق الله! . .

- لقد جعل اليهود لهم إلهًا خاصًا بهم ، «يهوه» وجعلوه «رب الجنود . . والجيش . . المتعطش للارتواء بدماء كل الأمم والشعوب - غير اليهود . . . وتحريم - أى إهلاك وإبادة - كل مكونات الحياة لدى كل الأمم والشعوب - غير اليهود»! . .

ولذلك ، كتبوا على لسان «يهوه» فى سفر حزقيال . . [إصحاح ٣٩ : ١٧ - ١٩] :

- «هكذا قال السيد الرب : قل لطائر كل جناح وكل وحوش البر اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم ، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا . تأكلوا اللحم الجبابرة وتشربوا دم رؤساء الأرض ، كباش وحملان وأعتدة وثيران من مسمنات باشان ، وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم»! . .

كما كتبوا على لسان ذلك الرب فى سفر أشعيا . [إصحاح ٣٤ : ١ - ٦] :

- «اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، وأيها الشعوب اصغوا لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها؛ لأن للرب سخطاً على كل الأمم وحُموّاً على جيشهم . قد حرّمهم - أهلكهم - ودفعهم إلى الذبح . فقتلهم تطرح وجيفهم تصعد نتائنها وتسيل الجبال بدمائهم ، ويغنى جند السماوات : للرب سيف قد امتلأ دماً !!! .

فالكون مسرح للذبح والمذبحة والذبيحة ، تهلك فيها كل شعوب الأرض ورؤسائها ، لتطرح جيفهم ، وتصعد نتائنها ، وتسيل بدمائهم الجبال ، حتى تسكر الطيور والوحوش بدماء سائر الشعوب . . ويغنى جند بنى إسرائيل : إن للرب سيفاً قد امتلأ دماً !!! .

ولماذا كل هذا ؟! . .

ليشفى «شعب الله المختار» غليله من كل الأغيار !!! . .

ولتأييد هذه الثقافة العنصرية الدموية تجاه جميع الأغيار - من كل الأمم والشعوب والديانات والحضارات - قرن أحبار اليهود - الذين أعادوا كتابة أسفار التوراة فى مناخ السبى البابلى ، وفى ظلال أحقادهم فيه - قرنوا العقيدة العنصرية ، التى نجعلهم - وحدهم - أبناء الله وأحبائه وأوليائه وشعبه المختار ، بل والمقدس ، دون كل الشعوب ، وفوق جميع الشعوب ، قرنوها بدعوة الرب إياهم إلى إبادَةِ الشعوب ، بل وأكلهم أكلاً !!! . فنشروا فى أسفار العهد القديم النصوص ، التى نسبوها إلى ربهم ، والتى تقول لهم - على سبيل المثال - :

- «فقال الرب لموسى : اكتب هذا تذكّاراً فى الكتاب ، وضعه فى مسامع يشوع : فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» سفر الخروج . [إصحاح ١٧ : ١٤] .

- «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إهلك لتسكن فيها قولا . . فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها - تهلكها - بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف . تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إهلك ، فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد . . لكى يرجع الرب عن حمو غضبه ويعطيك رحمة» ١ - سفر الشئبة . [إصحاح ١٣ : ١٢ ، ١٥ - ١٧] .

فرحمة الرب مرهونة مشروطة بإيادة الأغنياء وكل مكنونات الحياة عند هؤلاء الأغنياء، لمجرد أنهم «قالوا قولاً» سمعه اليهود! . .

- «وكلم الرب موسى في عربات موآب على أُرْدُن أريحا قائلاً: كلم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم . . تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم في الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم!» سفر العدد . [إصحاح . ٣٣ : ٥٠ - ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦].

«وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن . فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها - تهلكها»

سفر التثنية . [إصحاح ٢ : ١٠ - ١٦].

فالذين يصالحون ويسلمون، لهم العبودية والاستعباد . . والذين لا يصالحون ولا يسلمون لهم الإبادة والدمار! . .

- «يقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حراثتكم وكراميتكم، أما أنتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجددهم تأمرون!»

سفر أشعيا . [إصحاح ٦١ : ٥].

فكل الأجانب وجميع الغرباء وسائر الأغنياء خدام وعبيد مسخرون عند اليهود، الذين يأكلون ثروة كل الأمم، ويتملكون ويتأمرون على سائر الشعوب! . .

- «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فلذلك تحرمهم - تهلكهم . . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم . ولا تصاهرهم . . لأنك أنت شعب مقدس للرب

إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . . مباركاً تكون فوق جميع الشعوب ، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك . ويرد الرب عنك كل مرض ، وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتھا لا يضعھا عليك ، بل يجعلھا على مبغضيك . وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إلیك . لا تشفق عينك علیهم» ١١١

سفر التثنية . [إصحاح ٧ : ١ - ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ - ١٦] .

إنھا ذروة العنصرية ، وقمة الدموية ، وخلاصة هذه النزعة التي تجاوزت كل الحدود . . اليهود شعب الله المختار ، الذي اختاره دون جميع الشعوب ، وجعله فوق جميع الشعوب ، بل هم الشعب المقدس - مع بهائمك كذلك ! - لا تصيبه أی من الأمراض . . التي يدفعها الرب إلى أعداء اليهود . .

وفي هذا النص ، لم یكتفوا بأن تكون لهم السيادة والإمارة على الأمم ، وبأن يأكلوا ثروات الأمم ، ويستعبدوا تلك الأمم . فأضافوا إلى كل ذلك التشريع «لأكل كل الشعوب» . . دوغماً عهد یُقطع . . ولا غین تشفق على تلك الشعوب ! . .



* ولم یكتفوا بتأثيرات هذه التصوُّص «الدينية» - وغيرها كثير - في تأجيج نيران الثقافة العنصرية - ثقافة الكراهية السوداء - تجاه جميع الأغیار . . وإنما ذهبوا لتأييدها ، وتأييد تأثيراتها العنصرية على امتداد الدهور .

فبعد أن جعلوا إلههم هذا - يهوه - «الرب الذي لا یبرئ» ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء ! - سفر العدد . [إصحاح ١٤ : ١٨] . . امتدوا بهذه العنصرية ، وهذه الكراهية ، وهذه الإبادة لتفعل فعلها في واقع الممارسات التي یمارسها الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين ، في واقعنا المعاصر والمعيش ! - وذلك بدعم من الصليبية الغربية ، شریكتهم في ثقافة العهد القديم !

- فالخاخام «العقيد . أ . فیدان (زیمبل) یفتی - في سبعينيات القرن العشرين - فتوى تنشرها القيادة العسكرية للمنطقة الوسطی في الجيش الصهيوني - التي تقع الضفة

العربية تحت سلطتها - يحدد فيها ويطبق هذه التصوصى العنصرية الدموية التى كتبت فى العهد القديم . . ويقول فى هذه الفتوى المعاصرة .

«فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا، هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه - الشريعة . . بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»!!^(٢١).

فالقتل واجب للمدنيين الطيبين، بمقتضى الشريعة الحاكمة والمكونة لهذه الثقافة العنصرية الدموية . .

- أما الخاخام «شمعون وايزر»، فإنه يفسر لأحد الجنود الصهاينة الذين يخدمون فى فلسطين المحتلة سنة ١٩٦٧م نص العهد القديم: «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء» سفر التثنية . . [إصحاح ٢٥ : ١٩]، فيجعل الفلسطينيين - وكل الأغيار - المعاصرين مثل «العماليق»، المطلوب - دائما وأبدا كلما أمكن - محو ذكراهم من تحت السماء . . فيقول هذا الخاخام:

«إنه لا يسمح فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة فحسب، بل يجب القيام بذلك أيضا»!!^(٢٢)

- وحتى لحظات كتابة هذه الدراسة - مارس سنة ٢٠٠٥م - يعلن الخاخام الصهيونى البارز «دافيد دودكفيتش» خاخام مستوطنة «يتسهار» - المقامة على الأرض الفلسطينية المحتلة، قرب مدينة نابلس، فى الضفة الغربية - والذى يمثل المرجعية الروحية الرئيسية «لثنية التلال» اليهود، الذين يقومون بالاستيلاء على الأراضى الفلسطينية عنوة، ويقيمون عليها المستوطنات اليهودية يعلن هذا الخاخام البارز - فى مقابلة صحفية مع المجلة الأسبوعية الصهيونية «شيفع» - أنه «يزود المستوطنين اليهود بالتعليمات المفصلة التى تبيح لهم، بل وتحضهم على سرقة المحاصيل الزراعية للفلسطينيين»!! . . مبررا السرقة والاستيطان بقوله: «إننى لا أرى أن هذا الأمر غير شرعى من ناحية التوراة. هذه أوامر الرب»!!^(٢٣)

فالاستيلاء على أرض الأغيار، وحتى سرقة المحاصيل الزراعية التي زرعتها الأغيار هو «أوامر» الرب لليهود حسب التوراة . .

تلك هي العنصرية اليهودية . . التي أدركها . . وتحدث عنها الإمام محمد عبده، عندما قال - في تفسير قول الله - سبحانه - على لسان اليهود : ﴿وَلَا تَزُمُّوا الْإِيمَانَ بِتَيْبِ دِينِكُمْ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

«إن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعيمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم . بل غلوا في التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس ، فجعلوا كل ما يكون من أنفسهم حسنا ، وما يكون من غيرهم قبيحا ، وهذا من الانتكاس الذي يحول بين أهله وبين كل خير .

وإننا نرى من الناس اليوم من يحاول تغيير قومه بحملهم على أن يكونوا كذلك ، يحقرون كل ما لم يأت منهم وإن كان حسنا . فنعوذ بالله من الخذلان ، وعسى أن يعتبر هؤلاء بما رد الله به على أهل الكتاب إذ قال لنبيه : ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران : ٧٣] . لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته ، فهو - سبحانه - يبين هذه على لسان من شاء من عباده ، لا بتقيد مشيئته بأحد ولا شعب» (٢٢) .

العصمة الدولية لشعب الله المختار

ولو أن هذه العقيدة العنصرية الدموية قد وقفت عند اليهود، لكان الأمر بعض الشيء، ولجاز أن نقول إنها شذوذ فكري، تقف حدوده وتأثيراته الكارثية عند أقلية لا يتعدى عددها ثلاثة عشر مليوناً من الناس. . . لكن الطامة الكبرى أن أصبحت هذه العقيدة العنصرية الدموية - أن اليهود هم شعب الله المختار، دائماً وأبداً - عقيدة دينية للصليبية الغربية، التي تلعب الدور الأكبر في توجيه السياسة الدولية الحديثة والمعاصرة:

فمنذ التحول العقدي الذي أحدثه «مارتن لوتر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] في النصرانية الغربية، أصبح العهد القديم مرجعية مقدسة في هذه النصرانية - وخاصة البروتستانتية منها - . . . وأصبحت هذه المسيحية الغربية - في جملتها - «مسيحية - صهيونية»، تؤمن بأن:

١ - اليهود هم شعب الله المختار. . . ليس في التاريخ القديم فقط - كما هو الحال عند الكنيسة الأرثوذكسية - وإنما لا يزالون هم شعب الله المختار. .

٢ - وبأن الميثاق الإلهي الرابط بين اليهود والأرض المقدسة قائم أبداً.

٣ - وبأن عودة المسيح ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة - رؤيا العودة وأسطورة الألفية - مشروطة بعودة اليهود إلى فلسطين، وإقامة الدولة الصهيونية، وإحلال اليهود محل الفلسطينيين، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

ومنذ ذلك التاريخ غدت «المسيحية الصهيونية» عقيدة لكنائس غربية كثيرة، وموجهة لدول ومؤسسات وقيادات، تضيء القداسة على شعب الله المختار - اليهود -

وتتخذهم سبيلا لإقامة الدولة الخادمة للمشروع الإمبريالى الغربى فى قلب العالم الإسلامى ، والتى يفتح قيامها الباب لعودة المسيح ، وتحقيق الرؤى والأساطير المسيحية الصهيونية . . .

وانطلاقا من هذا التطور «العقدى - السياسى» ، تحول الكيان الصهيونى - الذى أقيم على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ م - إلى ما هو أكثر من «دولة» من دول العالم . . تحول إلى «تجلٍ إلهى» وتحقيق «لنبوءة توراتية مقدسة» ، ومن ثم أصبحت «عصمة شعب الله المختار» عقيدة موجهة لسياسة المشروع الإمبريالى الغربى ، تجعل اليهود ودولتهم «كياناً معصوماً» من أن تطبق عليه القوانين الدولية والإرادات البشرية . . ولا تطبق عليه إلا معايير التوراة - بنصوصها العنصرية - فهو فعال لما يريد ، ولا يُسأل عما يفعل - ككل معصوم . . بل لقد أصبح النقد - مجرد النقد - لسياسات وممارسات هذا الكيان - الدموية - جريمة تتسابق الدول الغربية لمحاكمة مقترفيها ! ! .

لقد أصبح «الثيتو» الأمريكى - فى مجلس الأمن - هو حارس «العصمة لشعب الله المختار» وكيانه الصهيونى على أرض فلسطين . . وغدت تصريحات زعماء اليمين الدينى . . وقساوسة المسيحية الصهيونية عن أن إسرائيل كيان دينى ، و«تجلٍ إلهى» ونبوءة توراتية مقدسة ومعصومة من أن تعامل كمجرد دولة ، تطبق عليها القوانين البشرية - ومنها القوانين والقرارات الدولية - حتى لو صدرت عن المؤسسات الدولية - أصبح ذلك أمراً مقررًا وشائعًا ومرعيًا ومطبقًا فى التعامل مع الكيان الصهيونى القائم على أرض فلسطين . . فشعب الله المختار - كما قالت أسفار العهد القديم - «شعب مقدس . . دون جميع الشعوب . . وفوق جميع الشعوب» . . ولديه تفويض «إلهى» بأن يأكل كل الشعوب أكلا ، وأن يمحو ذكرى أعدائه - العرب والمسلمين - من تحت السماء ، كما حدث للعمالق ! . .

وإذا كنا قد فصلنا القول فى هذه القضية بكتابنا [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين] ^(٢٤) ، فإننا نكتفى - هنا - بهذه «الإعلانات» المفصحة عن هذه العقيدة السائدة الحاكمة فى دول ومؤسسات الصليبية الغربية - والأمريكية منها على وجه الخصوص - :

« فالرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» يخطب أمام إحدى المنظمات اليهودية

الأمريكية - في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٦٨ م - أي عقب انتصار إسرائيل في حرب
«الأيام الستة» - فيقول لهم :

«إن لأكثركم ، إن لم يكن لجميعكم ، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل ،
كما هو الأمر بالنسبة إليّ ؛ ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم . إن القصص
التوراتية محبوبكة مع ذكريات طفولتي»^(٢٥) .

« أما الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» فإنه يضع كل النقاط على جميع الحروف
عندما يعلن - في خطابه أول مايو سنة ١٩٧٨ م - :

«إن العودة إلى أرض التوراة التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين ، وإن إقامة
الامة الإسرائيلية في أرضها هو تحقيق لنسبة توراتية ، وهي تشكل جوهر هذه
النسبة»^(٢٦) .

« أما الرئيس «رونالد ريغان» ، فإنه يعلن عن أن نسبة العهد القديم هي التي
ترسم له سياسته في الصراعات الدولية ، وتسيطر على مشاعره «إزاء إسرائيل ، فيقول -
سنة ١٩٨٤ م - في حديث مع صحيفة «واشنطن بوست» :

«إنني أعود إلى النسبة القديمة المذكورة في العهد القديم ، وإلى المؤشرات حول
«هرمجدون» - المعركة الأسطورية التي ستعقب حشر اليهود في فلسطين . . وبناء
الهيكل . . والتي سيبدأ فيها ملايين البشر ، ليعود المسيح من جديد - فأتساءل بيني وبين
نفسى : ما إذا كنا الجيل الذي سيرى تحقق هذه النسبة . . إن هذه النسبة تصف
بالتأكيد ما نمر به الآن»^(٢٧) .

« أما قساوسة اليمين الديني والمسيحية الصهيونية ، فإنهم يعلنون - بلسان رئيس
التحالف المسيحي ، المسيطر على الكونجرس الأمريكي ، والمتحكم في معركة الرئاسة
الأمريكية ، القس «بات روبرتسون» :

«إن هذه الأرض - أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات - هي أرض الله ، وإن الله
كلمات قوية تجلب الغضب على من يقسم أرضه»^(٢٨) .

« ثم يأتي القس «كلارنس واجنر» ليعلمنا صريحة : إن إسرائيل هي كيان إلهي

مقدس . لا تطبق عليها القوانين البشرية ؛ لأنها قانون توراتي ، لشعب الله المقدس والمختار والمعصوم ، فيقول - عن السياسات والمفاوضات والاتفاقات البشرية حول الصراع العربي الصهيوني :-

«علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التي هي من صنع الإنسان في الأمم المتحدة، أو حتى في الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبي، أو في أوسلو أو في واي ريفر إلخ. إن الله بعيد عن أي مخطط يعرض مدينة القدس للصراع، بما في ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون - حيث المسجد الأقصى - وهو - الله - أبعد ما يكون عن إعطاء القدس للعالم الإسلامي، إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى (جروزالم) . . .» (١٢٩).

فشعب الله المختار . . المقدس فوق جميع الشعوب، ودون جميع الشعوب، له وحده هذه الأرض - أرض الله - والخطط الحاكمة لأفعال هذا الشعب المقدس هي «الخطط الإلهية»، وليست خطط الأمم المتحدة ولا غيرها من «الخطط التي هي من صنع الإنسان»!! . . .



تلك هي النزعة العنصرية الدموية «العقيدة شعب الله المختار» . . كما تجلت في نصوص العهد القديم . . والتلمود . . والسياسة والثقافة التي تحكم الكيان الصهيوني على أرض فلسطين . .

وتلك هي الأبعاد التي اتخذتها هذه العقيدة في المسيحية الصهيونية الغربية . . وفي الفكر الحاكم والموجه لمشروع الهيمنة الغربية . . أشرنا إلى معالمها منذ تبلورها في النصوص التي كتبها أحبار اليهود إبان حقبة السبي البابلي [٧٢١ ق. م]، وحتى هذه اللحظات . .

فأين هذه «العنصرية الدموية» - الخرافية - من النزعة الإنسانية التي تجلت فيها العدالة الإلهية، التي حكمت المنهاج الإسلامي في تحديد الصفات والشروط والمعايير الحاكمة لخيرية الأمة الإسلامية؟؟ . .

وصدق الله العظيم : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

والحمد لله على نعمة الإسلام . . وإنسانية الإسلام . . وعدالة المنهاج الإسلامي في العلاقات بين الأمم والشعوب والديانات والحضارات ،

الهوامش:

- (١) الراغب الأصفهاني: [المفردات في غريب القرآن] - مصطلح «الأمة» - طبعة دار التحرير - القاهرة، سنة ١٩٩١ م.
- (٢) المصدر السابق - مصطلح «خير».
- (٣) المصدر السابق - مصطلح «المعروف» و«المنكر».
- (٤) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٥ ص ٥٤ - ٥٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة، سنة ١٩٩٣ م.
- (٥) المصدر السابق. ج ٥ ص ٥٤.
- (٦) المصدر السابق. ج ٥ ص ٥٩ - ٦٥.
- (٧) المصدر السابق. ج ٥ ص ٥٦ - ٥٧.
- (٨) المصدر السابق. ج ٥ ص ٥٧ - ٥٩.
- (٩) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ٧٧ ترجمة: حسن خضر. طبعة دار سينا - القاهرة، سنة ١٩٩٤ م.
- (١٠) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] - من عهد رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران - ص ١٢٦ - تحقيق: د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦ م.
- (١١) [نهج البلاغة] ص ٣٣٤ - شرح الإمام محمد عبده. تحقيق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا - طبعة دار الشعب - القاهرة.
- (١٢) [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ١٦٨.
- (١٣) المرجع السابق. ص ٣٦، ٣٧، ٤٠.
- (١٤) المرجع السابق. ص ١٦٨ - ١٧١، ٣٤.
- (١٥) المرجع السابق. ص ١٥٨.

- (١٦) المرجع السابق. ص ١٦١ .
- (١٧) المرجع السابق. ص ١٦٢ .
- (١٨) المرجع السابق. ص ١٦٠ ، ١٧٣ .
- (١٩) المرجع السابق. ص ١٦٢ .
- (٢٠) المرجع السابق. ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (٢١) المرجع السابق. ص ١٣٦ - ١٤٠ .
- (٢٢) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - في ٦ / ٣ / ٢٠٠٥ م - رسالة الصحفي «صالح النعيمي» - من غزة .
- (٢٣) [الأعمال الكاملة] ج ٥ ص ٤٣ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢ م .
- (٢٤) د . محمد عمارة [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق - القاهرة ، ٢٠٠٥ م .
- (٢٥) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص ٤١ . طبعة بيروت ، سنة ١٤٢٤ هـ - سنة ٢٠٠٣ م .
- (٢٦) المرجع السابق. ص ٤١ - ٤٢ .
- (٢٧) المرجع السابق. ص ٤٣ .
- (٢٨) المرجع السابق. ص ٧٦ .
- (٢٩) المرجع السابق. ص ٧٦ .

المصادر والمراجع

✽ القرآن الكريم

✽ العهد القديم

✽ [إسرائيل شاحاك : (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ترجمة : حسن خضر . طبعة دار سيناء - القاهرة ، سنة ١٩٩٤ م .

✽ الراغب الأصفهاني : [المفردات في غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة ، سنة ١٩٩١ م .

✽ صالح النعيمي : صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - في ٦ / ٣ / ٢٠٠٥ م .

✽ علي بن أبي طالب : [نهج البلاغة] - بشرح الإمام محمد عبده - تحقيق : محمد أحمد عاشور ، محمد إبراهيم البنا - طبعة دار الشعب - القاهرة - بدون تاريخ .

✽ د . محمد حميد الله - محقق - : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٦ م .

✽ محمد السماك : [الدين في القرار الأمريكي] طبعة دار النفائس - بيروت ، سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

✽ محمد عبده - الأستاذ الإمام - : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق - القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م .

✽ د . محمد عمارة : [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق - القاهرة ، سنة ٢٠٠٥ م .



عوامل تفوق الإسلام

« شهادة غربية »

شهادة العلامة مونتجومري وات

وهذه الشهادة الغربية، المنصفة للإسلام، وحضارته، وثقافته.. بل والمؤكدة على صدقه.. وعلى رقيه وتموقه على الديانات الأخرى.. هي لواء من أعمدة الاستشراق المعاصر، وأعمدة الثقافة الغربية المعاصرة، المؤرخ والباحث الإنجليزي، النصراني الأنجليكاني، مونتجومري وات - Mont gomery, Watt ..

وهو محاضر في اللغة العربية وآدابها.. ومتخصص في الدراسات الإسلامية الأكاديمية.. وفي علم الكلام الإسلامي.. وفي التاريخ الإسلامي.. وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة (أدنبرا).. وحاصل على الدكتوراه في علم الكلام الإسلامي.. بموضوع الكسب والجبر والاختيار.. وصاحب المؤلفات العديدة.. ومنها: (عوامل انتشار الإسلام) سنة ١٩٥٥م.. (وإمام في مكة) سنة ١٩٥٨م.. (وإمام في المدينة).. (والإسلام والجماعة الموحدة) سنة ١٩٦١م.. (وإمام النبي ورجل الدولة).. (والإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) سنة ١٩٦٩م.. إلخ.. إلخ..

وهذه الشهادة المنصفة للإسلام وحضارته وثقافته.. والمؤكدة على تفوق صدق الوحي القرآني.. قد جاءت ثمرة لدراسات «مونتجومري وات» للإسلام.. مقارنا بالديانات الأخرى.. دراسات استمرت لأكثر من ثلاثين عاماً.. بدأت سنة ١٩٣٧م.. مع معاشة للواقع الإسلامي.. وحوارات مع العديد من علماء الإسلام.. حتى جاءت هذه الشهادة ثمرة لأبحار هذا العالم المرموق في بحار الديانات والحضارات والثقافات، في تاريخها المديد، وواقعها المعاصر.. حتى لقد جاءت هذه الشهادة.. كما يقول هذا العالم المرموق، ثمرة لمرآح من التقدم والارتقاء نحو «نظرة حيادية لا تتحاز لأي من الدينين - المسيحية والإسلام - رغم مواصلة العيش على أرض الواقع المسيحي، ممارساً لما تفرضه المسيحية على من يتدين بها... مع ما استلزمه هذا الارتقاء وهذه الحيادية من معاناة وتوتر داخلي..»

• وهو: في هذه الشهادة، يتحدث عن:

- ١ - الأهداف المتوخاة من كتابته عن الإسلام، مقارنة بالتصنيفات..
- ٢ - ويقدم شهادة عالم نصراني غربي على صدق الوحي الإلهي كما تجسد في القرآن الكريم. وعلى تمييز الوحي في القرآن عنه في التوراة والإنجيل.. وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ.
- ٣ - كما يشهد هذا العالم النصراني الغربي على ثراء القرآن.. وجدته.. وأصالته.. وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهي.. وعلى الثقة بالنص القرآني المتداول بين الناس.. وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم يؤثر في وحدة معاني النص القرآني.. وعلى مركزية القرآن ومحوريته في الثقافة الإسلامية..
- ٤ - كما يشهد للغة العربية.. لغة القرآن.. ولسان الشريعة الإسلامية.. باعتبارها لغة حضارة وثقافة راقية ومتميزة..
- ٥ - ويشهد لعالمية الإسلام.. وتفوقه.. وورقيه.. وبأنه منهاج شامل للحياة..
- ٦ - ويشهد.. كذلك.. على أن انتشار الإسلام.. ووراثته للمسيحية.. في الشرق.. إنما يرجع إلى الضعف الذاتي الكامن في تلك المسيحية.. وإلى فشلها في تلبية احتياجات الإيمان الديني الذي تطمئن به القلوب.. وذلك على العكس من التوحيد الإسلامي، الذي حقق تفوقاً لا يجارى في هذا الميدان.. وعلى استمرارية هذا الفضل.. المسيحي.. في عصرنا الراهن.. والذي يتخذ شكل تراجع المسيحية وتقدم الإسلام..
- ٧ - كما يشهد على مكانة الإسلام، وعطائه المتميز في دين المستقبل... وتقدمه.. دون الأديان الأخرى.. في حل مشكلة العنصرية..
- ٨ - وعلى نزعة التعصب في الحضارة الغربية.. وتركزها حول ذاتها..
- ٩ - وعلى خطر النظرة العلمانية على القيم والأخلاق..
- ١٠ - كما يحدد.. في شهادته هذه.. شروط الحوار المثمر بين أهل الأديان.. يشهد.. مونتيجمري وات، على ذلك كله، فيقول:

الأهداف

«إن هدفى الأساسى هو:

• أن أقدم الإسلام بأفضل شكل مبسط للقارئ الأوروبى والأمريكى الذى ينظر للأمور بمنظور دينى أو بمنظور علمانى ..

وإنى أقصد بذلك أن أبطل مفعول الآثار الباقية من دعايات حروب العصور الوسطى [الحروب الصليبية]. كما أنى حاولت أن أجعل القارئ يتحقق، على نحو أفضل من ذى قبل، من أهمية الإسلام، التى تجلت طوال مئات السنين التى أعقبت حروب العصور الوسطى هذه.

• والهدف الثانى: هو أن أوضح للمسلمين أن الدارسين الغربيين ليسوا بالضرورة معادين للإسلام كدين، بل إنه من الممكن أن نجتمع بين هذه الاتجاهات ..»^(١).



الوحي القرآنى

«إن جزءاً من أهداف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين بمفهوم الإسلام للوحي، وتعريف الذين لم يدركوا منهم حتى الآن أن الوحي الإسلامى مسألة لا بد من تناولها بجدية . .

إن القرآن الكريم ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة، أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين، وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبله بشرٌ من كل الأجناس تقريباً.

وهذه الفكرة نفسها عن «الوحي» اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون، فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس هى كلمات الله نفسه، إلا أنهم - عادة - لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كُتّاب الأنجيل، وإنما يلقى فى روع هؤلاء الكتاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقاً. فالأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد «هكذا يقول الرب . . .» لذا، فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات إنما هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقاً . . .

إننى أعتقد أن القرآن بمعنى من المعانى صادر عن الله، وبالتالي فهو وحي . . .

وكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد «حواراً» بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين، فإن هذا يعنى أنه من المستحيل الاستمرار فى الأداء بوجود «وحي»

أو «رسالة» أو «ديانة» مسيحية دون الاعتراف «بشيء» من الصحة «للوحي» أو «الرسالة» أو «الديانة» الإسلامية .

والمنهج الذى أتخذته فى هذه الدراسة ، هو أن أصل بقدر ما أستطيع إلى مستوى الحقيقة الخالصة ، ولن أتعرض للقرآن باعتباره من إنتاج محمد ، وإنما باعتباره وحياً .

كيف وصلت هذه الكلمات التى كونت التجربة الأولى إلى وعى محمد أو شعوره؟
إننا نؤمن بصدقه وإخلاصه عندما يقول إنها ليست نتيجة أى تفكير واع منه .

إن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى :

١- محمد يشعر ، وهو فى حالة وعى ، أن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى .

٢- وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن قط نتيجة أى تفكير واعٍ من جانبه .

٣- أنه يعتقد أن هذه الكلمات ألقيت فى روعه (عقله) من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجى يتحدث إليه كملك .

٤- أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله - تعالى .

هذه الملامح الأربعة الرئيسية موجودة فى كل حالات الوحي كما وردت فى القرآن الكريم . . .

إن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى ، وإن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك ، وإن يقيناً جازماً كان يتملك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله . . .

لقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهى حاضراً فى وعيه ، فلما تمت كتابته شكّل النص القرآنى الذى بين أيدينا . وكان محمد واعياً تماماً أنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله ، وبعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز (أو يفصل) بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعى . الأمر الذى يعنى أن

القرآن الكريم لم يكن - بأية حال من الأحوال - نتاج تفكير محمد . وهذا يعنى أنه سيكون من الخطأ أن نقول ، فى مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم : إن محمداً قال . . .

إلا أن بعض الدارسين الأوروبيين فى الماضى تحدثوا كما لو أن محمداً قد فعل ذلك ، وهذه الطريقة فى الحديث تدعو للأسف ، فهى طريقة غير علمية ، لم تضع فى اعتبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد فى تلقى الوحي . .

لكن فى مجتمعنا المعاصر ، الذى يسوده جو التداخل بين الأديان ، يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذا النحو . .

إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية . . .

وعندما يتحدث محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أوحيت إليه ، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى ؛ لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله ، وما كان لبشر أن يتحدث الله ، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة الإلهية وتعنى أيضاً فقرة من الوحي . .

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لا عترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد ، تماماً كما فعل «ورقة بن نوفل» [١٢ هـ ٦١١ م] (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد) . ومن هنا يمكن أن نقول : إن إشارة القرآن إلى «تحريف» لحق اليهودية والمسيحية - بصورتها الموجودة أيامه - قول صحيح . . .^(٢)

شراء القرآن.. وجدته.. وأصالته.. وحفظه.. ومحوريته فى الثقافة الإسلامية

«ثمة عدة نقاط تُعد بمثابة عناصر أصالة وتميز فى القرآن؛ نظراً لأن فكرة الوحي وتلقى الرسالة قد تطورت فى القرآن..»

إنه إذا اكتشفنا شيئاً من عدم التناسق المنطقي Inconsistency فى القرآن، فهذا دليل على ثرائه وخصوبته، ودليل على سمو مضمون (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر، أو غير المجدى Barren Conceptual Thought ومن هنا قد نجد (معنيين) أو (تقريرين) مختلفين Incosistent لأن أحدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام..»

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (موضة) تقديم القرآن للمقارئ الأوروبي باعتبارها مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوروبا الغربية - التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

وإذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخي، حتى بصدد مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل، لوصلنا إلى نتائج خاطئة، وعلى أية حال، فافتراض أن محمداً قام بدعوته فى فراغ، أى دون مراعاة لظروف العالم وقتها، فرض غير علمي. عندما ننظر للقرآن والعهدين (القديم والجديد) فى السياق التاريخي، نجد أن الأمور تسير فى اتجاه آخر، أو تصل بنا إلى نتائج أخرى، أو تتخذ ملامح مختلفة، فنبى العهد القديم - هو

بدوره. لم يحدثنا من فراغ عقلي، إنما راعى الحياة العقلية والثقافية السائدة، وبالمقياس نفسه يجب أن ننظر إلى محمد ودعوته، فالرسالة الأصيلة والجديدة لكل نبي هي تلك الرسالة التي تتواءم مع كثير من الأفكار، وتعبّر عن نفسها باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة، وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها..

وهكذا يظهر القرآن أصالته، ولو لم يكن إلا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلاً على الأصالة..

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان، أن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية، وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة..

يؤكد القرآن الكريم أن الرسالة التي حملها محمد لشعبه كانت هي نفسها الرسالة التي حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم، وعلى أية حال، فإن هذا التماثل ينطبق على أساسيات الرسالة، كالإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة.. وحتى الأفكار التي اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية، فإنها قد اتخذت شكلاً عربياً واضحاً..

إن القرآن كان يمهّد لاتّقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد (الإسلام)..

على أن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تماماً للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم ولم تكن مجرد عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية)..

وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم في مرحلة نقائه الأولى.. إن القرآن يقرر لنا أن الإسلام هو دين مطابق لدين إبراهيم الخالص، وهو قول يستحق النظر إليه بجدية..



إن كلمة (جمع) - [في الحديث عن جمع القرآن] - قد استخدمت في آيات قرآنية مهمة ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١٧) ﴿ إِذَا قُرِئَتْ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٨) ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]..

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعي لهذه الآيات أن محمدا ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التي أوحى بها في أوقات مختلفة لجعلها في سياق واحد .

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه ، فمن الصعب أن نتصور زيدا - [زيد بن ثابت (١١ ق . هـ - ٤٥ هـ ٦١١ - ٦٦٥ م] - أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل . ومن هنا ، فإن كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه . . إن القرآن كان يسجل فور نزوله ، وقد جمع رسميا حوالى سنة ٦٥٠ م .

ورغم كثرة القراءات ، فإن أيا منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى .

والشئ نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان ، فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن ، بحيث تحدث ردود أفعال مختلفة فى المجتمع الإسلامى . .

ومهما كان الطريق الذى دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية فإن المجتمع الإسلامى لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن . وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوته مكان المركز أو القطب أو المحور . .

ولقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلوكية واللاسلكية إلى أن أصبح إسلام المناطق البعيدة عن المركز متوافقا ومتوائما مع إسلام المناطق المركزية أو الوسطى . . (٣)

- ٤ -

العربية: لغة حضارة وثقافة متميزة

«إن اللغة العربية ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة، فالروايات التي لا تخلو من الحقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقة في التصحر، كما تخبرنا عن انهيار نظام الري في اليمن وهجرة قبائل مختلفة من هذا اليمن الذي كان سعيداً..»

وهذه التجارب لا بد أن نفترض أنها تركت أثراً في مضامين الكلمات المختلفة، كما أن كثيراً من العرب ارتبطوا بالأعمال التجارية، فقد كان تجار مكة الكبار يتحكمون في القوافل التي كانت تتجه بانتظام إلى الشام وإلى اليمن، وارتبطت القوافل المتجهة إلى اليمن بطرق التجارة المتجهة إلى جزر الهند والمتجهة إلى شرق أفريقيا، وقد تركت هذه التجارة أيضاً بصماتها على اللغة العربية..

وعلى هذا، فاللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافي خاص يمتاز بكثير من الملامح التي تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى. وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى، خاصة في عالم متداخل الأديان، إنها تعني أنه لا وجود لإنسان معياري Standard Man أي أن هناك أنماطاً كثيرة معيارية، يمثل كل غلط منها منطقة ثقافية حضارية محددة..^(٤).

عالمية الإسلام.. وتقوّه.. ورقية

«إن الإشارات القرآنية الخاصة» أو «اللصيقة» بالعرب لا تنفى أنه عالمى النزعة، أو ذو طبيعة عالمية، فالقرآن يخاطب البشر عامة، وليس الإنسان العربى فى الوسط الثقافى أو الحضارى العربى فحسب. . وتلك حجة قوية؛ لأن الإسلام قد انتشر بالفعل انتشاراً واسعاً خارج نطاق الوسط الثقافى العربى بمعناه الضيق أو الأصلى، فاعتنقته أجناس مختلفة من أوساط ثقافية مختلفة. .

إن رسالة الإسلام، التى وُجّهت فى البداية لأهل مكة والمدينة، كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية. .

إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية. .

ولقد كان لإحكام النظرة العالمية للإسلام (كونه ديناً عالمى النزعة) مما جعله يستوعب تراث المسيحية الباقي بين شعوب الشرق الأوسط التى كانت مسيحية، ومن هنا فقد أصبح المفكرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية لكل المنطقة. . .

«لقد حاولت الحركة التبشيرية - [المسيحية] - الحديثة أن تخترق مناطق العالم الثقافية التى تسيطر عليها الأديان الأرقى، وقد رغب سكان هذه المناطق فى التكنولوجيا الأوروبية، وفى الجوانب المادية من الحضارة الأوروبية، لكنهم - فى غالبهم - فى الوقت نفسه كانوا مرتبطين ارتباطاً عميقاً بدينهم الذى كانوا يشعرون أنه أرقى من دين الأوروبيين. . ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية فى هذه المناطق محدوداً

تماماً، فمعظم من تركوا دينهم في هذه المناطق ودخلوا دين الأوروبيين لم يكونوا أصلاء، ولم يكونوا من صلب التكوين الثقافي الأصلي لبلادهم، وإنما كانوا من جماعات تعيش على هامش ثقافة بلادها، أو كانت لا تحظى بوضع اجتماعي مريح في نطاق هذه الثقافة السائدة .

وهناك اهتمام في الإحصاءات الإرسالية بعدد المتحولين للمسيحية، وبزيادة الأعضاء الملتزمين للكنائس المحلية . والمسيحية في هذا الصدد تختلف إلى حد التناقض مع الإسلام، فرغم أنه دين دعوة للمسيحية، إلا أنه أقل تباهياً بالداخلين فيه، فالمجتمع الإنساني يجذب أناساً إلى الإسلام بمجرد قبولهم كإخوة «في الإسلام»، وهذا الاتجاه لا يتخذه إلا أصحاب دين واثقون من دينهم ثقة عظيمة، ثقة لا تجعلهم يؤكدونها بالإحصاءات، بينما نجد أن المسيحيين الغربيين يمرون بأزمة ثقة في النفس . . .» .



«إن عبارة «إرادة الله أو مشيئته - The Will Of God» موجودة في الديانتين - (المسيحية والإسلام) - لكن ارتباطها بحياة المسيحيين والمسلمين مختلف، فبالنسبة للمسيحي عادة ما تعني إرادة الله المفهوم المعنوي للإرادة The Moral Will كما تجلت في الوصايا العشر Command Ments أو تتجلى في الفطرة السليمة للفرد (الحدس أو البديهة) (إرادة الله بالنسبة لي فيما يتعلق بعمل) .

بينما نجد أن المسلم يطبقها على كل ما يحدث، فكل ما يحدث بإرادة الله ومشيئته . ومرة أخرى نجد أن الدين بالنسبة للمسلم يغطي تقريباً كل جوانب الحياة، بينما هو بالنسبة للمسيحي الأوروبي العادي لا يغطي إلا جانباً يسيراً منها، مع أن كلمة «الدين» العربية هي المقابل لكلمة Religio الإنجليزية، إلا أن المفهومين مختلفان كما رأينا . لا يمكننا إذن عقد مقارنته، رغم أن الألفاظ واحدة، ومن هنا فليس ثمة معيار أو مقياس Criterion بسيط للفصل بين ما هو حقيقي صادق، وما هو زائف خادع . .



لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية)، ونقول عن حق: «إنه بالفعل كان يفوقهما، أو أنه فعلاً كان متفوقاً عليهما، أو أرقى منهما . . .»^(٥) .

فشل المسيحية في الشرق الأوسط

«إن الجانب المهم في إنجاز الإسلام في الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحية التي كانت محور الحياة الثقافية في هذه المنطقة . مناطق شاسعة كان سكانها في غالبيتهم يشكلون قلب العالم المسيحي ، فأصبحوا يشكلون قلب العالم الإسلامي . إنه من الضروري أن نتمعن في أسباب هذا التغير بعناية .

لقد تحدثنا كثيراً في هذه الدراسة عن قوة الإسلام . وإذا كان علينا أن نحذو حذو «توينبي - Arnold Toynbee [١٨٨٩ - ١٩٧٥ م] - على أية حال - لقلنا إن السبب الجوهرى هو الضعف الداخلى للمسيحية (أو ضعف المسيحية من الداخل ، أو كون بذور الضعف في قلب المسيحية) .

يتعين علينا أن نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين . . إن كثيراً من المسيحيين الشرقيين ، خاصة اللاهوتيين منهم ، استخدموا أيضاً اليونانية في الكتابات الجادة ، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسى بعقليتهم في لغاتهم الأصلية (السرانية ، القبطية ، الأرمنية . . إلخ) . .

وقد أدى الاختلاف في العقلليات إلى اختلاف في الصيغ اللاهوتية في قضايا مختلفة ، وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية (العالمية) كان (اليونانيون) يستبعدون المسيحيين الشرقيين (الناطقين باللغات آتفة الذكر) من حق التصويت . وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين ، بل واعتبرتهم الإمبراطورية البيزنطية طريدى عدالة ومحرومين من حماية القانون . .

وعندما تم طرد هذه الطوائف من الكنيسة المسيحية (للدولة البيزنطية) قامت هذه الطوائف بتأسيس عقائد تحاشت فيها الهرطقات الأكثر خطورة (ما اعتبره الآخرون هرطقات خطيرة)، التي اتهمهم مناوئوهم بها. ولم يكن هذا كافيًا لرأب الصدع بين الطوائف المسيحية، فقد تنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة في عدم التوحد، ومن هنا كان طرد المسيحيين الشرقيين من الكنيسة ومن المجامع المقدسة على أساس أنهم (هرطقة) أدى إلى قيام المسيحيين الشرقيين بتأسيس منظمات كنسية منفصلة، وأدى هذا إلى إضعاف المسيحيين الشرقيين، والجهاز الكنسي الرئيسي (للدولة البيزنطية) على السواء. . وهكذا تحولت الخلافات اللاهوتية إلى شعارات سياسية. .

لذا فعندما فتح المسلمون سوريا ومصر رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين (البيزنطيين) الممقوتين. . وقد لخص «كريستوفر داوسون» Christopher Dawson «١٨٦٧ م. - ١٩٥٠ م» بعض هذه النقاط، بأسلوبه الموجز المفعم بالمعاني، عندما قال: «إن محمدًا كان هو إجابة الشرق على تحدى الإسكندر» [٣٥٦-٣٢٤ ق. م]. . فقد كان محمد هو مؤسس الدولة الإسلامية التي سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى (إمبراطورية) أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة في مواجهة الهيلينية بوجه عام.

لقد دخل الإسلام إذن في منطقة لم تحقق فيها المسيحية نجاحًا، أو لنقل إنها فشلت بالفعل، فالبلاد التي كان يسيطر عليها المسيحيون الشرقيون في وقت من الأوقات أصبحت الآن بلادًا إسلامية عميق إسلامها. .

وعلى أية حال، ففي كل مكان تحول نسل المسيحيين الشرقيين إلى الإسلام، بل لقد تحول عدد كبير منهم أنفسهم، لا سلالاتهم فقط، ولا يمكن أن نعزو ذلك لمجرد الضغوط المادية والاجتماعية، كاعتبار المسيحيين في الدولة الإسلامية مواطنين من الدرجة الثانية. ولن يفهم المسيحي فهمًا كاملاً ما حدث بالضغط إلا إذا أعد لتقبل حقيقة أن هنا - أي في هذه المنطقة - كانت المسيحية في وضع أقل (من الديانات الأخرى) أو بتعبير آخر، ربما كانت المسيحية في هذه المنطقة تحظى بقبول أقل، ربما حتى من الناحية الروحية، أو على الأقل أنها نظرية مقبولة ظاهريًا أن المسيحيين الشرقيين غدوا غرباء عن المسيحية. .

لذا فمن المقبول ظاهرياً أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا للإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا في المسيحية .

بل أكثر من هذا، إذ يمكن أن نقول إنه بينما فشلت المسيحية - على أساس من المفاهيم اليونانية - أن تقدم نفسها للعقول الشرقية، فإن الإسلام - على أساس من المفاهيم العربية - نجح في إحراز بعض التقدم بتقديم الأفكار اليونانية .

إنها حقيقة معروفة جيداً أنه فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد قبل الوسط الثقافي والفكري الإسلامي كثيراً من الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية .

ومن نافلة القول أن نقول إن هناك الكثير من الثقافة اليونانية نبذه الإسلام تماماً، ليس أقله «التراجيديا اليونانية»، والإنجازات الكبرى في الخيال الشعري، وهذا الإهمال لا يمكن أن يكون مجالاً للتركيز لتوضيح الفارق بين العقليتين . . .» .

«إن تأثير المسيحية الفعلى، أو تأثير جوهر العقلية المسيحية يبدو في تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التي تقوم بها الحركة التبشيرية، وفي الوقت نفسه وجدنا «صحوة» أو «انبعاثاً» أو «حركة نهضة» في معظم أديان العالم الكبرى الأخرى «غير المسيحية»، بل وظهرت أيضاً أديان جديدة . وإذا رجعنا للإسلام وجدنا زيادة في عدد معتنقيه في نطاق منطقته الجغرافية، بل وظهرت حركات دعوة للإسلام في أوروبا . . .»^(١) .

الإسلام هو الهيكل الأساسى لدين المستقبل

«فى المستقبل . . ستكون هناك حركة بطيئة ستمخض فى النهاية عن ثقافة متجانسة للعالم أجمع . وفى مثل هذه الثقافة المتجانسة المنتشرة عبر العالم كله ستكون المقارنة الموضوعية بين الأديان أمراً ممكناً .

إنه فى الحاضر والمستقبل المرنى، من الضرورى أن نعرف أن الأديان الكبرى لدى كل منها ما يتمم الآخر، فكل دين من هذه الأديان صحيح فى نطاق منطقة ثقافية خاصة، والأديان يكمل بعضها بعضاً .

وعلى المدى البعيد - بطبيعة الحال - من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد، ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، فهم جميعاً مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم . .

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون هى دين العالم فى المستقبل . . لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمراً مؤكداً، ولندكر عنصراً واحداً، فبعض الأمم المسيحية تعاني بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادراً على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى .

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة، وعمق حججه . إلا أن الثقة بالنفس، مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى «عيب» وليس ميزة، عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءاً منه .

والإسلام - بالتأكيد - مناضل قوى، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد - دين المستقبل - بهيكلة الأساسى . . «(٧) .

تعصب المركزية الأوروبية

«إن الحضارة الأوروبية (أو العالم المسيحي) كانت، ولفترة طويلة، تتصرف كما لو أنها الوحيدة التي تستحق الاهتمام، واعتبر الأوروبيون أنفسهم هم وحدهم - من بين كل البشر - الجديرين بالاعتبار (ينظر الكتاب المعاصرون لحضارة أمريكا الشمالية باعتبارها امتداداً للحضارة الأوروبية، ويرى آخرون ضرورة النظر إليها كحضارة مستقلة).

وفي القرن التاسع عشر كانت الثقافة الأوروبية حضارة، وكلما تقدمت تكنولوجياً وسياسياً، أصبحت مناطق أخرى من العالم متحضرة، ونتيجة لهذه الفكرة أهمل بالفعل تاريخ الحضارات العالمية الكبرى قبل اتصالها بأوروبا.

وعاملت الحضارة الأوروبية أديان العالم المعاملة نفسها، فكانت تنظر إلى التطور الديني الرئيسي للجنس البشري من خلال نظرها للمسيحية، وإن كانت قد أعطت مساحة قليلة من الاهتمام لليهودية، وفيما عدا ذلك كان الأوروبيون ينظرون إليه باعتباره غير متطور وبدائياً. ومن هنا، فهناك افتراض مؤداه أن الأديان الأخرى الآن (غير المسيحية)، بما في ذلك الأديان الكبرى، سوف تخلق مكانها سريعاً للمسيحية.

وقد يكون «الأبرشيون - Parishioners» قد توارثوا فكرة أن كل من هم غير مسيحيين لا يزيدون عن كونهم أفضل قليلاً من الجماعات البدائية التي لم تتعد مرحلة الهمجية، لكن أفكار هؤلاء الأبرشيين بدأت تنهار وتتساقط حولهم شذراً مذبذباً، إذ إنهم قد اكتشفوا أن غير المسيحيين يمكنهم أن يعيشوا حياة حضارية راقية، وأنهم مهتمون - بعمق - برفاهية أبنائهم، وأنهم يخضعون لمعتقداتهم لبناء عقلى، مثلهم في ذلك مثل المسيحيين.

لكل هذه الأسباب ، فإن الحقيقة الكبرى المتمثلة في «عالم متداخل الأديان» بسبيلها إلى التأثير في حياتنا اليومية بشكل متزايد . .

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول جانباً واحداً من قضية التداخل بين الأديان ، وهو بالتحديد العلاقة بين المسيحية والإسلام . .

إن الإسلام منافس قوى للمسيحية في قيادة عالم اليوم . إن جاز لنا استخدام مثل هذه المصطلحات الاستراتيجية . ولا بد أن نتحقق من أن كثيراً من عقائد الآباء عن تفوق المسيحية لم يكن في الواقع سوى مجرد اعتقاد في تفوق الحضارة الأوروبية المادية ، أما على المستوى الديني ، فالحقيقة أن الإسلام كان دوماً نداً للمسيحية ، فالإسلام مثله مثل المسيحية لديه «كتاب» لعالمنا المعاصر»^(٨) .



العلم.. والعلمانية.. والقيم

«إن المناهج العلمية لا تصلح لمجال «القيم - Values». وإن قبولنا للمنهج العلمي واعترافنا بجدواه يؤدي بنا إلى نظرة علمانية للعالم، حيث لا مجال للمقيم الدينية والأخلاقية..»

وكثير من المسيحيين الآن يقبلون كثيراً من جوانب هذه النظرة العلمانية للعالم، ويحتفظون في الوقت نفسه بعقائد دينية بعينها تبدو متناقضة مع نظرتهم العلمانية الآنف ذكرها، أو يؤدي وضعهما متجاورين - العقائد الدينية والنظرة العلمانية - إلى نوع من المفارقة

ويشعر المتدينون من مختلف الأديان، بصعوبة الجمع بين النظريتين (الموقفين) بأشكال مختلفة»^(١)



شروط الحوار بين أهل الأديان

«إن الحوار - كما أرى - يتضمن الاستعداد للقبول الإيجابي بمقولات الدين الآخر رغم عدم التحول إليه، وبدون شيء من الاستعداد ليتعلم أصحاب كل دين من أصحاب الأديان الأخرى، يصبح الحوار نوعاً من الهداية المعطلة . .
إننا نحاول أن نعطي براءة لحوار حر (مفتوح) من هذا النوع . .

إن كثيرين يفهمون الحوار بطرائق مختلفة، فهو بالنسبة للبعض مؤتمرات ذات سلطات قد تنتهي بقرارات تم الاتفاق عليها . .

وهو، بالنسبة لآخرين، لا يعدو أن يجتمع عدد من اللاهوتيين المسيحيين والعلماء المسلمين ليصدروا قرارات فيما يتعلق بالمسائل الخلافية في العقائد . .

بل هناك من يتحدث عن الحوار بشكل منغلق، وكأنما ليس هناك إلا طرف واحد .
مثل كاتب سويسرى اختتم كتابه الموسوم باسم : Dialogue With Islam بهذا النداء الذى وجهه للمسلمين :

«إننا نطلب بشكل خاص جداً، نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين ديننا، أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئاً أكثر وأفضل، أفضل من ثقافتكم : إنه كلمة الحياة، رؤية مملكة الرب، وأمل لا نهائى، أمل لا ينتهى، نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد : إنه يسوع المسيح» .



إن مثل هذا الكلام ليس «حواراً» بأى معنى من المعانى ذات الأهمية . فمثل هذه العبارات لا تعنى شيئاً، أو لا قيمة لها حتى بالنسبة للمسلم الذى وصل إلى درجة عالية من التعليم . إنه، ببساطة، سيجيب عن مثل هذه النداءات غير المجدية، بأن لديه بالفعل «كلمة الحياة» ممثلة فى القرآن، وأنه يعتقد أن إرادة الله ومشيئته هى التى تحقق العدالة على ظهر الأرض . .

وإذا وضعنا في اعتبارنا أن «الحوار» المقصود هنا يكون بين أشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة، اتضح لنا ضرورة أن يكون المشاركون في هذه الحوارات أناساً على درجة عالية من التفتح وتقبل ما يقوله الآخرون، فلا يمكن أن يكون هناك حوار من أي نوع ما لم يتكلم أحد الأطراف بينما يصغى الطرف الآخر لما يقال محاولاً أن يفهم، وهذا ليس بالأمر اليسير بين ثقافات غريب بعضها عن البعض الآخر، لأسباب منها اختلاف المفاهيم والقيم والأفكار، فلماذا راح طرفان أحدهما مسيحي والآخر مسلم، يبحث كل منهما للآخر عن حجج وبراهين لدعم الخلاف بينهما، فهما سيجدان بسهولة كثيراً من العناصر لدعم الخلاف، لكن هذا لن يؤدي إلى قيام حوار حقيقي. فمن شروط الحوار الرغبة في التعلم، وإذا كان الأمر متعلقاً بثقافات مختلفة، فهذا يعني صبراً عظيماً ومحاولة التألف والتعارف بكل جوانب العقلية الأخرى، أو العقلية الغربية، والتدريب على فهم عقليات الآخرين يجعل المرء أكثر تفتحاً، فإذا تقبل القيم الموجودة في الدين الآخر، فإنه سيبدأ في البحث عن سبيل لإدماجها في دينه. فالمؤلف المسيحي السويسري - الذي اقتبسنا من كتابه تلك العبارات - كان يشجع المسلمين - بلطف ودماثة - على أن يضيفوا إلى دينهم شيئاً دون أن يتخلوا عن الجزء الأساسي من تراثهم، ولكنه فشل في أن يرى - كمسيحي - أنه لا بد أن يسأل نفسه فيما إذا كان لدى الإسلام شيء يقدمه ليضاف إلى المسيحية؟

ربما كانت ثقة المسلم العادي العميقة في الله، هي الفكرة التي يجب أن تأخذها المسيحية من الإسلام.

ويبدو ضرورياً لحوار حقيقي أن يفرق كل مشارك في الحوار بين رسالة دينه الإيجابية، وبين حججه الدفاعية، فتكرار الحجج الدفاعية يعني الرغبة في منع معتنقي هذا الدين من الخروج عنه، كما يحفز معتنقي الديانات الأخرى على صياغة حجج مضادة، والدفاعات والحجج المختلفة قد تنشأ بين أصحاب دين واحد على تفسير نص، مع أن هذا النص يلقي اعترافاً من الطرفين المتجادلين..

وفي الحوار مع الإسلام، يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمداً لم يتلق وحياً، والأفكار الشبيهة..^(١٠).

الهوامش

- (١) مونتنجومرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٢٣ . ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ . طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (٢) المصدر السابق . ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥١-٥٥ ، ٨٣ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ .
- (٣) المصدر السابق . ص ٦٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٦٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٨ ، ٦٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .
- (٤) المصدر السابق . ص ٦٥ .
- (٥) المصدر السابق . ص ٦٧ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٨٨ ، ٢٢٣-٢٢٦ ، ٣٣ ، ١٩١ .
- (٦) المصدر السابق . ص ١٧٩-١٨٣ ، ١٨٥-١٨٨ ، ٤٥ .
- (٧) المصدر السابق . ص ٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
- (٨) المصدر السابق . ص ٢٨-٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ .
- (٩) المصدر السابق . ص ٣٢ .
- (١٠) المصدر السابق . ص ٢٤ ، ٢٢٧-٢٣٠ .

رقم الإيداع ٢٠٠٥ / ٢٠٩٨٩

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-09-1450-9

احترام المقدسات

• عندما نتحدث القرآن الكريم عن حماية المسلمين لمقدسات الديانات، تبينها ترتيباً تاريخياً، فجماعت المساجد في ختامها! ﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ ..

• وعندما أعطى رسول الله ﷺ العهد للنصارى، أعلن حمايته لكنائسهم وصلبانهم... وكذلك صنع المسلمون على امتداد تاريخ الإسلام، فحجرت الفتوحات الإسلامية كنائس الشرق من الاغتصاب الروماني، لا لتجعلها مساجد، وإنما لتردها للنصارى يتعبدون فيها! ..

• أما الغرب الاستعماري.. فإن تاريخه مع مقدسات الإسلام قد سود صفحات هذا التاريخ! لقد حول الصليبيون المسجد الأقصى إلى أضطبل للخيول، قرابة التسعين عاماً!.. وهم يساعدون الصهاينة على هدمه هذه الأيام!..

• ودنست خيول نابوليون الأضر الشريفة، ومزق جنوده المصاحف.. ودنسوها.. كما يصنع الأمريكان اليوم في معتقل جوانتانامو!..

• وفي أحدث فصول هذا العار الغربي.. نشهد الآن تدمير الأمريكان لمساجد العراق، والأجهزة على الجرحى في هذه المساجد!.. حتى لقد دمروا في مدينة الفلوجة، وحدها أربعين مسجداً.. من جملة مساجد السبعين!..

• وللكشف عن موقف الإسلام من المقدسات.. وموقف الغرب من مقدسات الإسلام.. يصدر هذا الكتاب؟

خيرية الأمة

• كى يكون المسلمون خير أمة، لا بد أن يحققوا شروط هذه الخيرية، الأمر بالمعروف.. والنهي عن المنكر.. والإيمان بالله.. والأفانة ﴿ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوعاً يحزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء: ١٢٢].

• أما النزعة العنصرية في اليهودية التلمودية، فإنها تجعل المولود من أم يهودية.. من شعب الله المختار.. الأخص من جميع الشعوب.. والمقدس دون جميع الشعوب.. والذي يعلو فوق جميع الشعوب.. والمخلوق ليأكل كل الشعوب أكلاً.. دون أن يقطع لهم عهداً، أو تسقى عليهم عينا، ١١٩.

فالولادة تكسبه جميع هذه الحقوق.. حتى ولو كان ملحداً.. أو ابن زناً!..

• والأغرب.. في هذه الملهة.. المأساة.. أن تتحول هذه النزعة العنصرية، إلى عقيدة «المسيحية».. الصهيونية.. التي توجه المشروع الاستعماري الغربي ضد الإسلام والمسلمين!..

• إنه، الوهم.. الذي تحول إلى واقع.. تكشف عن حقيقته صفحات هذا الكتاب.

عوامل تفوق الإسلام شهادة غربية،

• .. لقد شهدت بدايات القرن العشرين (موضة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبي باعتباره مختارات من اليهودية والمسيحية!.. والواقع أن هذه النظرة هي من بقايا الدعاية المسيحية إبان الحروب الصليبية، عندما كانت أوروبا ترتعد فرائسها أمام جيوش الإسلام، فتحاول تقوية دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام!..

• .. لقد أكد الإسلام استقلاله عن اليهودية والمسيحية.. بل وكان متفوقاً عليهما.. وأرقى منهما!..

• .. إن القرآن هو كلام الله وحده.. وعندما تحدث محمد أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله.. كان من المستعزض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي.. لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدث الله!..

• وإن إشارة القرآن إلى تحريف لحق باليهودية والمسيحية، هو قول صحيح!..

• والإسلام هو مستودع دين إبراهيم في مرحلة نقائه الأولى!..

• ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيون بيهوديتهم ومسيحييتهم في حالة نقاء، لا عترفوا بالرسالة التي ألقاها الله اليهم عن طريق محمد!..

• تلك سطور من الشهادة الغربية.. التي تقدمها صفحات هذا الكتاب!